الفرحون

في ضوء القرآن الكريم والسُّنَّة النبويَّة

تأليف

توفيق علي زبادي

الكتـاب : الفرحون
في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية

المـؤلف : توفيق علي زبادي

النـاشر: دار الكتب العلميــة ـ بيروت

عدد الصفحات: 168

سنة الطباعة: 2006 م

بلد الطبـاعة: لبنـــان

الطبعـة: الأولى

Title : AL-FARIḤŪN
FĪ ḌAW' AL-QUR'ĀN AL-KARĪM
WAL-SUNNAH AL-NABAWIYAH
(The exultants in light of The Holy Qur'an and The Prophetic Sunna)

Author : Tawfīq 'Ali zabādi

Publisher : Dar Al-kotob Al-Ilmiyah

Pages : 168

Year : 2006

Printed in : Lebanon

Edition : 1st

جميع الحقوق محفوظة
2006م - 1427 هـ

ISBN 2-7451-5218-1
9 782745 152183 90000

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين الذي أمر عباده بالفرح بفضله ورحمته وذلك تبع للفرح والسرور بصاحب الفضل والرحمة. فإن من فرح بما يصل إليه من جواد كريم محسن، يكون فرحه بمن أوصل ذلك إليه أولى وأحرى.

﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨﴾[(١)]

ثم الصلاة والسلام على نبينا أفضل وأزكى من فرح بالله وبالإيمان وبالعلم وبالقرآن، وبكل طاقة من صحابته رضي الله عنهم - حيث وظَّفها لخدمة الدين ونُصرة الحق.

ورضي الله تعالى عن صحابته الطاهرين أجمعين الذين اتبعوا النور، وامتثلوا الأمر، وعافوا بهاريج الدنيا وتجردوا للعبادة والجهاد حتى صاروا خير مثال للتربية الكريمة النبوية، وعلى تابعيهم بإحسان، ومن تبعهم من أخيار القرون الأولى، ومن سار على نهجهم واقتدى بهديهم، من السلف الصالح ومن لحق بهم على مر العصور، من الفقهاء والزهاد والدعاة العاملين والقادة المشمرين.

ولقد جاء الفرح في القرآن الكريم على نوعين : مطلق ومقيد.

النوع الأول : المطلق : جاء في الذم كقوله تعالى :﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾[(٢)]. وقوله تعالى : ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾[(٣)].

---

(١) سورة يونس، الآية: ٥٨.

(٢) سورة القصص، الآية: ٧٦.

(٣) سورة هود، الآية: ١٠.

النوع الثاني : المقيد : وهو نوعان :

- **مقيد بالدنيا :** يُنسي صاحبه فضل الله ومنته. فهو مذموم كقوله تعالى :
﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾[(١)].
- **مقيد بفضل الله وبرحمته : وهو نوعان :**

* فضل الله ورحمته بالسبب. كقوله تعالى :
﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨﴾[(٢)].
* **وفضل بالمسبب :كقوله تعالى :**
﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾[(٣)].

وإن عرضي للبحث يشمل أصناف الفرحين وليس أصناف الفرح مبرزاً أنواع فرحهم وسميته " الفرح في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية.

وكان من أسباب اختياري لهذا الموضوع بعد أن جلت ببصري في المكتبة الإسلامية بصفة عامة فلم أجد من أفرد هذا الموضوع وبعد استشارة أستاذي الجليل الأستاذ الدكتور مبارك محمد أحمد رحمه جزاه الله خيراً شرعت في الكتابة في الموضوع وكانت هناك بواعث أخرى دفعتني للكتابة في الموضوع أجملها في النقاط التالية :

١. أن الله - عز وجل - حذر من الفرح بالدنيا وزخارفها وتقلبها بأهلها، واستدراج الله - عز وجل - لهم حيث قال تعالى : ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ وقال أيضاً ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾.
٢. أن الفرح الممدوح هو الفرح بالله وبرسوله وبالإيمان وبالعلم وبالآخرة كما قال تعالى : ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ وقوله تعالى : ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾.
٣. حث المؤمنين على سرعة التوبة والعودة إلى الله لحب الله للعبد التائب وفرحه - سبحانه - فرحاً يليق بجلاله - بتوبة العبد .
٤. تبصير المؤمنين بمنهج السلف والخلف في آيات الصفات وأحاديثها.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٤٤.
(٢) سورة يونس، الآية :٥٨.
(٣) سورة آل عمران، الآية ١٧٠.

٥. تبصير المؤمنين بسبل المنافقين وخططهم الماكرة من أجل القضاء على الإسلام والمسلمين، وأنهم هم الأعداء حقاً.
٦. حث المؤمنين على وجوب الفرح بفضل الله وبرحمته وتحذيرهم من استدراجهم إن لم يشكروا نعم الله عليهم.
٧. تعريف المؤمنين بصفات علماء الآخرة حتى يقتدوا بهم ويسيروا على نهجهم وبصفات علماء السوء حتى يتجنبوها ويفروا منها.
٨. حث المؤمنين على ضرورة العمل معاً على اختلاف تخصصاتهم ووسائلهم والوقوف صفاً واحداً وفي خندق واحد من أجل رفع راية الله وعودة الخلافة الراشدة والبعد عن سبل التفرق والتشرذم خاصة في الوقت الحاضر.
٩. حث علماء الأمة والأخيار منها على لم الشمل ووحدة الصف والوقوف مع الأمة في معركتها مع الباطل وضرورة أن تكون لهم الريادة والقيادة حتى تثق بهم الأمة ويلتفوا حولها حتى يتحقق وعد الله ونصره للفئة المؤمنة.

والمنهج الذي حاولت أن أسير عليه من خلال البحث فيتلخص في الآتي :

١- سلكت في عرض الموضوع المنهج التحليلي للنص القرآني والحديث النبوي - في الغالب - مسترشداً في ذلك بفهم المفسرين للآيات وبفهم شُراح الحديث للنص النبوي.
٢- إذا كان الحديث في الصحيحين أو أحدهما فلا أعرجُ على سواهما ولا أذكر غيرهما - إلا لأمر ما -.
٣- حاولت نقل تخريج روايات السيرة من كتب الحديث مع نقل الحكم ما وجدت إلى ذلك سبيلاً وإلا اكتفيت بعزوها إلى مراجع السيرة الأصلية، كـ(سيرة ابن هشام) وغيرها.
٤- أثبت أسماء المصادر والمراجع في الهامش بما اشتهرت به. فمثلاً " تفسير القرآن العظيم " الذي اشتهر " بتفسير ابن كثير " وهكذا.
٥- بينت معنى كل كلمة غريبة - ما استطعت إلى ذلك سبيلاً - وردت في البحث معتمداً في ذلك على كتب الغريب في القرآن والسنة ومعجم اللغة العربية، وأحياناً على شروح كتب الحديث والتفاسير.
٦- ترجمت في الهامش لكل عَلَم عند وروده أول مرة في صلب البحث فقط مستثنياً المشهورين : كالخلفاء الأربعة، والأئمة الأربعة . . .

٧- عزوت الآيات القرآنية إلى سورها ذاكراً اسم السورة ورقم الآية.

٨- حرصت على أن أتبع ذكر الرسول - صلى الله عليه وسلم - بالصلاة والسلام عليه، والصحابة بالترضي عليهم والعلماء بالترحم عليهم.

٩- سرت عند الاقتباس على مصطلحات علماء البحث العلمي، فما وجدته نصاً جعلته بين قوسين وأشرت إلى الهامش بذكر المصدر ورقم الصفحة وما نقلته باختصار أو تحوير فغالباً ما أتركه غير مقوس مشيراً في الهامش إليه مع إضافة "بتصرف ".

خطة البحث

وقد استقر البحث على مقدمة وتمهيد وخمسة فصول وخاتمة.

أما المقدمة فقد بينت فيها أهمية الموضوع وسبب اختياري له، ثم ذكرت منهج البحث وخطته.

وأما التمهيد فعرضت فيها معنى الفرح والفرق بينه وبين الاستبشار والسرور.

وأما الفصل الأول : فكان بعنوان فرح الله -عز وجل- بتوبة العبد :

وقد اشتمل على أربعة مباحث :

المبحث الأول: مذهب السلف في آيات الصفات وأحاديثها.

المبحث الثاني: مذهب الخلف في آيات الصفات وأحاديثها.

المبحث : الثالث: من أقوال العلماء في حديث فرح الله بتوبة العبد.

المبحث الرابع: طبقات التائبين.

أما الفصل الثاني : فهو بعنوان : فرح رسول الله - ﷺ - :

واشتمل على أربعة مباحث :

المبحث الأول : فرح رسول الله - ﷺ - بإسلام عكرمة بن أبي جهل وعدي بن حاتم.

المبحث الثاني: فرح الأنبياء والصالحين.

المبحث الثالث: فرح رسول الله - ﷺ - بامن المدينة من شر الدجال اللعين.

المبحث الرابع: فرح رسول الله - ﷺ - بمبادرة المسلمين لدفع حاجة المحتاجين من المسلمين.

وأما الفصل الثالث : فهو بعنوان : فرح المؤمنين

ويشتمل على سبعة مباحث :

المبحث الأول : فرح المؤمنين بفضل الله.

المبحث الثاني : فرح المؤمنين بالعلم النافع.

المبحث الثالث: فرح المؤمنين بنصر الله.

المبحث الرابع : فرح الشهداء وأرواح المؤمنين.

المبحث الخامس : فرحتا الصائم.

المبحث السادس: صور ونماذج من فرح المؤمنين.

المبحث السابع : الفرح بموت الظالمين والطغاة.

وأما الفصل الرابع : بعنوان : فرح المنافقين ويشتمل على أربعة مباحث :

المبحث الأول : تربص المنافقين بالمؤمنين وفرحهم بما يحل بالمسلمين من مصائب.

المبحث الثاني : فرح المنافقين - المرائين المتكثرون - بما لم يعطوا.

المبحث الثالث : فرح المنافقين بالتخلف عن الجهاد.

المبحث الرابع : حركة النفاق وأثرها على الإسلام والمسلمين وتحتوي على سبعة مطالب:

المطلب الأول : زعيم حركة النفاق في عصر النبوة.

المطلب الثاني : ظهور حركة النفاق.

المطلب الثالث : مؤامرات المنافقين للطعن في الإسلام.

المطلب الرابع : المنافقون وتأسيس الفتنة الكبرى وتنشئة الفرق.

المطلب الخامس : دور المنافقين في استقدام الصليبيين.

المطلب السادس : المنافقون وسقوط الخلافة.

المطلب السابع : الموقف الشرعي تجاه المنافقين.

الفصل الخامس : فرح الكافرين : ويشتمل على إحدى عشر مبحثاً :

المبحث الأول: فرح جحود النعم.

المبحث الثاني :فرح الكافرين بالفخر على الغير.

المبحث الثالث : فرح التحزب والضلال.

المبحث الرابع : فرح ترك وتبديل الدين.

المبحث الخامس : فرح البطر والأشر.

المبحث السادس : فرح الكافرين بالعلم الفاسد الذي يقود إلى الجهالة.

المبحث السابع : فرح الاختيال والفخر.

المبحث الثامن : فرح الكفار بما أُوتوا في الدنيا (قانون الاستدراج).

المبحث التاسع : سنة الله في تدمير الباطل.

المبحث العاشر : نماذج للفرحين البطرين الأشرين.

المبحث الحادي عشر : دور العلماء العالمين العاملين.

ثم خاتمة.

فهرس المراجع والمصادر ثم فهرس الموضوعات.

تمهيد

تعريف الفرح:

فرح به : سُرَّ. والفرح : البَطر[1].

قال ابن منظور[2] :

الفرَح : نقيض الحزن. وقال ابن ثعلب : " هو أن يجد في قلبه خفةً ".

ولا تفرح : لا تأشَر[3].

قال الراغب الأصفهاني[4] :

الفرح : انشراح الصدر بلذة عاجلةٍ، وأكثرُ ما يكونُ ذلك في اللذات البدنية والدنيوية[5].

قال القرطبي[6] :

الفرح : لذة في القلب بإدراك المحبوب.

---

(١) مختار الصحاح: ص ٥٢١.

(٢) صاحب لسان العرب: هو محمد بن مكرم بن علي بن أحم الأنصاري الأفريقي ثم المصري جمال الدين أبو الفضل كان ينسب إلى رويفع بن ثابت الأنصاري ولد سنة ٦٣٠ هـ وتوفي ٧١١هـ انظر ترجمته في مقدمة لسان العرب.

(٣) لسان العرب،(٢/ ٥٤١).

(٤) هو الحسين بن محمد بن المفضل الأصفهاني، صاحب التصانيف أديب متكلم مشهور، من تصانيفه: " المفردات في غريب القرآن " و " جامع التفاسير " و " محاضرات الأدباء " توفي سنة اثنتين وخمس مائة. انظر سير أعلام النبلاء،(ج١٨/ ١٢٠)، الأعلام (ج٢/ ٢٥٥).

(٥) مفردات ألفاظ القرآن، العلامة الراغب الأصفهاني، تحقيق صفوان داوودي، ص ٦٢٨.

(٦) هو الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري القرطبي، تفقه على مذهب مالك، واعتنى بتفسير القرآن الكريم توفي رحمه الله بمصر في سنة ٦٧١ هـ وله مصنفات منها الجامع لأحكام القرآن، والتذكار في أفضل الأذكار، والتذكرة: انظر ترجمته: في الديباج المذهب لابن فرحون: ٣١٧- ٣١٨.

قال ابن القيم :و " الفرح أعلى أنواع نعيم القلب ولذته وبهجته والفرح والسرور نعيمه والهم والحزن عذابه والفرح بالشيء فوق الرضى به، فإن الرضى طمأنينة وسكون وانشراح والفرح لذة وبهجة وسرور فكل فرح راض وليس كل راض فرحا، ولهذا كان الفرح ضد الحزن والرضى ضد السخط والحزن يؤلم صاحبه والسخط لا يؤلمه إلا إن كان مع العجز عن الانتقام"[١].

الفرق بين الفرح والاستبشار والسرور :

الفرح : بالمحبوب بعد حصوله.

الاستبشار : يكون بالمحبوب قبل حصوله إذا كان على ثقة من حصوله.

الفرح : صفة كمال. ولهذا يوصف الرب تعالى بأعلى أنواعه وأكملها، كفرحه بتوبة التائب أعظم من فرحة الواجد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة بعد فقده لها واليأس من حصولها.

الاستبشار من البشرى. والبشارة : هي أول خبر صادق سار.

السرور :

ورد في موضعين في القرآن في أحوال الآخرة وهما :

الأول: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩﴾[٢].

الثاني : ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝١١﴾[٣].

وورد السرور في أحوال الدنيا في مواضع على وجه الذم كقوله تعالى :

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝١٣﴾[٤].

---

(١) كتاب مدارج السالكين، الجزء ٣، صفحة ١٥٩.
(٢) سورة الانشقاق، الآيات: ٧-٩.
(٣) سورة الإنسان، الآية ١١.
(٤) سورة الانشقاق، الآيات (١٠ - ١٣).

فقد رأينا ورود كل من "**الفرح**" و"**السرور**" في القرآن بالنسبة لأحوال الدنيا وأحوال الآخرة.

والترجيح للفرح لأن الرب تبارك وتعالى يوُصف به. ويطلق عليه اسمه، دون السرور " فدل على أن معناه أكمل من معنى السرور وأمر الله به في قوله تعالى : ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ وأثنى على السعداء به في قوله : ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾[١].

---

(١) مدارج السالكين،ابن القيم، تحقيق عبد المنعم صالح العلي العزي، ص، ٥٠٣ - ٥٠٤، مكتبة المأمون - جدة، ١٤١٧ هـ/ ١٩٩٧م.

الفصل الأول

فرح الله - عز وجل - بتوبة العبد

عن الحارث بن سويد[1] حدثنا عبد الله بن مسعود[2] حديثين أحدهما عن النبي صلى الله عليه وسلم .. لله أفرح بتوبة العبد من رجل نزل منزلا وبه مهلكة ومعه راحلته عليها طعامه وشرابه فوضع رأسه فنام نومة فاستيقظ وقد ذهبت راحلته حتى اشتد عليه الحر والعطش أو ما شاء الله قال أرجع إلى مكاني فرجع فنام نومة ثم رفع رأسه فإذا راحلته عنده [3].

وفي رواية الإمام مُسلم : عن أنس بن مالك[4] - رضي الله عنه - قال :قال رسول الله- صلى الله عليه وسلم- : " لله أفرح بتوبة عبده - حين يتوب إليه - من أحدكم، كان على راحلة بأرض فلاة، فانفلتت منه، وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها.فأتى شجرة فاضطجع في ظلها.قد أيس من راحلته،

---

(١) الحارث بن سويد التيمي، أسند الحارث عن علي بن أبي طالب وابن مسعود، وتوفي بالكوفة في آخر أيام ابن الزبير. انظر: صفة الصفوة،(ج٢/ ٦٥١).

(٢) الإمام الحبر، فقيه الأمة، أبو عبد الرحمن الهذلي المكي المهاجري البدري حليف بني زهرة. كان من السابقين الأولين ومن النجباء العاملين، شهد بدراً وهاجر الهجرتين وكان يوم اليرموك على النفل روى علماً كثيراً، مات بالمدينة ودفن بالبقيع سنة اثنتين وثلاثين، عاش ثلاثاً وستين سنة. (نزهة الفضلاء، تهذيب سير أعلام النبلاء، للإمام الذهبي (ج١/ ١٩٨).

(٣) صحيح البخاري، كتاب: كتاب الدعوات، باب: باب التوبة وقال قتادة توبوا إلى الله توبة، ورقم الحديث: ٥٩٤٩، (٥/ ٢٣٢٤).

(٤) هو أنس بن مالك الأنصاري، ثالث الرواة المكثرين من الصحابة، فقد روى (٢٢٨٦) حديثاً وهو خادم رسول الله الأمين، وأمه ام سليم الأنصارية قال فيه أبو هريرة رضي الله عنه: ما رأيت أحد أشبه صلاة برسول الله - ﷺ - من ابن أم سليم. وقال فيه ابن سيرين: أحسن الناس صلاة في الحضر والسفر. توفي عام ٩٣ هـ، انظر: طبقات ابن سعد " (٧/ ١٠)، وتهذيب ابن عساكر: (٣/ ١٣٩).

فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده.فأخذ بخطامها، ثم قال - من شدة الفرح - اللهم أنت عبدي وأنا ربك.أخطأ من شدة الفرح".

المبحث الأول

مذهب السلف في آيات الصفات وأحاديثها

قال السلف :

" نؤمن بهذه الآيات والأحاديث كما وردت ونترك بيان المقصود منها لله تبارك وتعالى : فهم يثبتون اليد والعين والاستواء والضحك والتعجب والفرح ... إلخ وكل ذلك بمعان لا نحيط بعلمها ونترك لله تبارك وتعالى الإحاطة بعلمها ولا سيما وقد نهينا عن ذلك في قول النبي - صلى الله عليه وسلم - : "تفكروا في خلق الله ولا تتفكروا في الله فإنكم لن تقدروه قدره "(١).

ندركها روى أبو القاسم اللالكائي في " أصول السنة " عن محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة - رضي الله عنهما - قال : " اتفق الفقهاء كلهم من المشرق إلى المغرب على الإيمان بالقرآن والأحاديث التي جاءت بها الثقاتُ عن رسول الله - - صلى الله عليه وسلم - في صفة الرب - عز وجل - من غير تفسير ولا وصف ولا تشبيه، فمن فسر اليوم شيئاً من ذلك فقد خرج مما كان عليه النبي - صلى الله عليه وسلم - وفارق الجماعة، فإنهم لم يصفوا ولم يفسِّروا، ولكن أفتوا بما في الكتاب والسنة ثم سكتوا ".

وروى أبو بكر الأثَرمُ، وأبو عمرو الطلمنكي وأبو عبد الله بن أبي سلمة الماجشون : " فما وصف الله من نفسه فسماه على لسان رسوله سميناه كما سماه، ولم نتكلف منه صفة ما سواه، لا هذا ولا هذا، لا نجحد ما وصف، ولا نتكلف معرفة ما لم يصِف ".

" اعلم رحمك الله أن العصمة في الدين أن تنتهي حيث انتهى بك، ولا تجاوز ما قد حُدَّ لك، فإن من قوام الدين معرفة المعروف، وإنكار المنكر، فما

---

(١) قال العراقي: رواه أبو نعيم في " الحلية" بإسناد ضعيف، ورواه الأصبهاني في الترغيب والترهيب بإسناد أصح منه.

بُسطتْ عليه المعرفة، وسكنت إليه الأفئدة، وذُكر أصله في الكتاب والسنة، وتوارث عِلمَهُ الأمةُ فلا تخافنَّ في ذكره وصفته من ربك ما وصف من نفسه عيناً، ولا تكلفن بما وصف من ذلك قدراً، وما أنكرته نفسك، ولم تجد ذكره في كتاب ربك، ولا في الحديث عن نبيك من ذكر صفة ربك فلا تتكلفنَّ علمه بعقلك ولا تصفه بلسانك، واصمت كما صمت الرب عنه من نفسه، فإن إنكارك معرفة ما لم يصف به نفسه مثل إنكارك ما وصف منها فكما أعظمت ما جحد الجاحدون مما وصف من نفسه، فكذلك أعظم تكلف ما وصف الواصفون مما لم يصف منها، فقد والله عزّ المسلمون الذين يعرفون المعروف وبمعرفتهم يعرف، وينكرون المنكر وبإنكارهم ينكر يسمعون ما وصف الله به نفسه من هذا في كتابه، وما يبلغهم مثله عن نبيه، فما مرض من ذكر هذا وتسميته من الرب قلب مسلم، و لا تكلف صفة قدره، ولا تسمية غيره من الرب مؤمن، و ما ذكر عن رسول الله - - صلى الله عليه وسلم - أنه سماه من صفة ربه فهو بمنزلة ما سمى ووصف الرب تعالى من نفسه، و الراسخون في العلم، الواقفون حيث انتهى بهم علمهم، والواصفون لربهم بما وصف نفسه التاركون لما ترك من ذكرها لا ينكرون صفة ما سمى منها جحداً ولا يتكلفون وصفه بما لم يسم تعمقاً، لأن الحق ترك ما ترك وسمى ما سمَّى ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾[١]. وهب الله لنا ولكم حكماً وألحقنا بالصالحين[٢].

المسلك القويم :

والمسلك القويم كما قال الإمام الشوكاني أن تجعل عمدتك في هذه القضية هاتين الآيتين :

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ وقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ ففيهما الإثبات والنفي. إثبات صفات الباري، و نفي المماثلة للحوادث، ثم

(١) سورة النساء، الآية: ١١٥.

(٢) مجموعة رسائل الشيخ حسن البنا، ص ٤١٤، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، عام ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

تقييد هذا الإثبات بظاهر ما صرحت به الآيات وأجملته والزجر عن الخوض في كيفية هذه الصفات فإن الله سبحانه قد أخبرنا أنهم لا يحيطون به علماً فمن زعم أن ذاته كذا أو صفته كذا، فلا شك أن صحة ذلك متوقفة على الإحاطة، وقد نفيت عن كل فرد من الأفراد ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾[١].

وقال الإمام ابن تيمية : " فأهل السلف يثبتون ما جاء في القرآن والسنة عن أوصافه سبحانه أو شئونه فيثبتون له المحبة، والغضب، والسخط والرضا، والنداء والكلام والنزول إلى الناس في ظلل من الغمام، ويثبتون الاستواء على العرش والوجه واليد من غير تأويل ولا تفسير بغير الظاهر لأن هذه الصفات ليست كشأن الحوادث.

فالصواب في هذا هو أن يوصف الله تعالى بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله لا يتجاوز القرآن والحديث "[٢]

المبحث الثاني

مذهب الخلف في آيات الصفات وأحاديثها

قال الخلف : إننا نقطع بأن معاني ألفاظ هذه الآيات والأحاديث لا يراد بها ظواهرها، وعلى ذلك فهي مجازات لا مانع من تأويلها، فأخذوا يؤلون "الوجه" بالذات و" اليد" بالقدرة وما إلى ذلك، هرباً من شبهة التشبيه.

قال الفخر الرازي في كتابه : " أساس التقديس" : واعلم أن نصوص القرآن لا يمكن إجراؤها عليلا ظاهرها لوجوه : الأول أن ظاهر قوله تعالى : ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾[٣]. يقتضي أن يكون موسى - عليه السلام - مستقراً على تلك العين ملتصقاً بها مستعلياً وذلك لا يقوله عاقل، والثاني أن قوله تعالى : ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾[٤] يقتضي أن يكون آلة تلك الصنعة هي تلك العين،

---

(١) التحف في مذهب السلف للإمام الشوكاني، ص ٥٣.

(٢) فهم الإسلام في ظلال الأصول العشرين، جمعه أمين عبد العزيز، دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع، الاسكندرية - القاهرة، الطبعة الرابعة، عام ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م.

(٣) سورة طه، الآية: ٣٩.

(٤) سورة هود، آية: ٣٧.

والثالث أن إثبات الأعين في الوجه الواحد قبيح فثبت أنه لابد من المصير إلى التأويل، وذلك هو أن تُحمل هذه الألفاظ على شدة العناية والحراسة.

ترجيح مذهب السلف :

ولقد اتضح لنا من خلال العرض السابق : أن رأي السلف من السكوت وتفويض علم هذه المعاني إلى تبارك وتعالى أسلمُ وأولى بالاتباع، حسماً لمادة التأويل والتعطيل.

"فإن كنت ممن أسعده الله بطمأنينة الإيمان، و أثلج صدره ببرد اليقين فى تعدل به بديلاً ونعتقد إلى جانب هذا أن تأويلات الخلف لا توجب الحكم عليهم بكفر ولا فسوق، ولا تستدعي هذا النزاع الطويل بينهم وبين غيرهم قديماً وحديثاً، وصدر الإسلام أوسعُ من هذا كله. وقد لجأ أشدُ الناس تمسكاً برأي السلف، رضوان الله عليهم إلى التأويل في عدة مواطن وهو الإمام أحمد ابن حنبل - رضي الله عنه - من ذلك تأويله لحديث " الحجر الأسود يمن الله في أرضه "[(١)]. وقوله - صلى الله عليه وسلم - : " قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن [(٢)]. وقوله : - صلى الله عليه وسلم - : "إني لأجد نفس الرحمن من جانب اليمن"[(٣)].

واتضح لنا كذلك أن السلف والخلف قد اتفقا على أن المراد غير الظاهر المتعارف بين الخلق، وهو تأويل في الجملة واتفقا كذلك على أن كل تأويل يصطدم بالأصول الشرعية غير جائز، فانحصر الخلاف في تأويل الألفاظ بما يجوز في الشرع، وهو هين، وأمر لجأ إليه بعض السلف أنفسهم، و أهم ما يجب أن تتوجه إليه همم المسلمين الآن توحيد الصفوف وجمع الكلمة "[(٤)].

واسمع ما قاله الإمام الشاطبي : " ومن أشد مسائل الخلاف - مثلاً -

---

(١) قال العراقي: رواه الحاكم وصححه من حديث عبد الله بن عمر.

(٢) رواه مسلم عن عبد الله بن عمر.

(٣) قال العراقي: رواه أحمد من حديث أبي هريرة في حديث قال فيه: " وأجد نفس ربكم من قبل اليمن " ورجاله ثقات.

(٤) مجموعة رسائل الشيخ حسن البنا، (٤١٥- ٤١٦).

مسألة إثبات الصفات، حيث نفاها من نفاها، فإذا نظرنا إلى مقاصد الفريقين وجدنا كل واحد منهما حائماً حول حمى التنزيه، ونفي النقائص، وسمات الحدوث، وهو مطلوب الأدلة، و إنما وقع اختلافهم في الطريق، وذلك لا يخل بالقصد في الطرفين معاً، فالحاصل في هذا الخلاف أشبه الواقع وبين الواقع في الفروع "[1]. أي أنها من مسائل الخلاف، ولا يوجب هذا الخلاف تكفير كل من أخطأ فيها إلا أن تقوم فيه شروط التكفير.

المبحث الثالث

من أقوال العلماء في حديث فرح الله بتوبة العبد

قال ابن القيم: «وهذه فرحة إحسان وبر ولطف، لا فرحة محتاج إلى توبة عبده، منتفع بها»[2].

وقال الإمام الخطابي : معنى الحديث أن الله أرضى بالتوبة وأقبل لها.

وقال النووي[3] : "قال العلماء فرح الله تعالى هو رضاه".

وقال المازري[4] المراد هنا " أن الله تعالى يرضى بتوبة عبده أشد مما يرضى واجد ضالته بالفلاة، فعبر عن الرضا بالفرح تأكيداً لمعنى الرضا في نفس السامع ومبالغة في تقريره».

وقال ابن أبي جمرة : كنى عن إحسان الله للتائب وتجاوزه عنه بالفرح

---

(1) الاعتصام للشاطبي، ص١٨٠.

(2) تهذيب مدارج السالكين، ابن القيم، تحقيق عبد المنعم صالح العلي، ص ١١٤.

(3) هو محيي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري بن حسن، الفقيه الشافعي الدمشقي الحافظ الزاهد القدوة أحد أعلام الأمة، ولد سنة إحدى وثلاثين وستمائة، كان يقرأ في كل يوم اثنى عشر دراً على المشايخ شرحاً وتصحيحاً، من تصانيفه: "شرح صحيح مسلم"، و "المجموع شرح المهذب" و "الأذكار" و "رياض الصالحين" و "التقريب والتيسير" في مختصر الإرشاد، توفي سنة ست و سبعين و ستمائة، (شذرات الذهب ج٥/ ٣٥٤ وما بعدها).

(4) الشيخ الإمام العلامة البحر المتفنن، أبو عبد الله، محمد بن عمر علي بن عمر التميمي المازري المالكي، مصنف كتاب " المعلم بفوائد شرح مسلم "و مصنِف كتاب "إيضاح المحصول " في الأصول، مولده بمدينة المهدية من إفريقية، ومات بها، سنة ست وثلاثين وخمس مائة وله ثلاث وثمانون سنة. ومازر: بليدة من جزيرة صقلية.

لأن عادة الملك إذا فرح بفعل أحد أن يبالغ في الإحسان إليه.

وقال ابن العربي(١) : "كل صفة تقتضي التغير لا يجوز أن يوصف الله بحقيقتها ".

وقال القرطبي في " المفهم " : " هذا مثل قصد به بيان سرعة قبول الله توبة عبده التائب، وأنه يقبل عليه بمغفرته ويعامله معاملة من يفرح بعمله، ووجه هذا المثل أن العاصي حصل بسبب معصيته في قبضة الشيطان وأسره وقد أشرف على الهلاك، فإذا لطف الله به ووفقه للتوبة خرج من شؤم تلك المعصية وتخلص من أسر الشيطان ومن المهلكة التي أشرف عليها فأقبل الله عليه بمغفرته وبرحمته، وإلا فالفرح الذي هو من صفات المخلوقين محال على الله تعالى لأنه اهتزاز وطرب يجده الشخص من نفسه عند ظفره بغرض يستكمل به نقصانه ويسد به خلته، أو يدفع به عن نفسه ضرراً أو نقصاً، وكل ذلك محال على الله تعالى فإنه الكامل بذاته الغني بوجوده الذي لا يلحقه نقص ولا قصور، لكن هذا الفرح له عندنا ثمرة وفائدة وهو الإقبال على الشيء المفروح به وإحلاله المحل الأعلى، وهذا هو الذي يصح في حقه تعالى، فعبر عن ثمرة الفرح بالفرح على طريقة العرب في تسمية الشيء باسم ما جاوره أو كان منه بسبب، وهذا القانون جار في جميع ما أطلقه الله تعالى على صفة من الصفات التي لا تليق به، وكذا ما ثبت بذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم».

وقال ابن حجر : "لا حاجة إلى التأويل، ومذهب السلف في أمثال هذا الحديث إمرارها على ظواهرها من غير تكييف ولا تشبيه ولا تأويل»(٢).

يقول الدكتور : رمضان البوطي " إن الله عز وجل ليست له الأجهزة الجسمية والعاطفية التي تشبه أجهزتنا حتى يفرح كما يفرح، لا، ولله المثل

(١) الإمام العلامة الحافظ القاضي، أبو بكر، محمد بن عبد الله بن محمد، ابن العربي الأندلسي الإشبيلي، المالكي، صاحب التصانيف، مولده سنة ثمان وستين وأربع مائة، بلغ رتبة الاجتهاد، توفي بفاس سنة ثلاث وأربعين وخمس مائة. (تهذيب سير أعلام النبلاء، ج٤/ ١٥٤٢)

(٢) تحفة الأحوذي بشرح الترمذي.

الأعلى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] والله عز وجل رحيم رحمن بعبده ومن ثم فالله عز وجل يدعوه، يدعوه ليل ونهارَ إلى أن يتوب، يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم فيما يرويه مسلم: ((إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار وإن الله يبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل)) هكذا ينتظر الله عز وجل من عبده إذا شرد أن يؤوب، ينتظر الله عز وجل من عبده إذا أخطأ أن يصلح حاله، ينتظر الله عز وجل من عبده إذا نسي أن يتذكر المعاد، أن يتذكر الموت ولقاء الله سبحانه وتعالى، هكذا ينتظر الله من عبده، فإذا رجع العبد إلى الله وقال: يارب ها أنا ذا عائد إليك. قَبِلَهُ الله قبولاً يعبر عنه المصطفى صلى الله عليه وسلم بهذا الحديث».

وقال ابن القيم[١] : " إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين فأوجبت هذه المحبة فرحاً كأعظم ما يقدر من الفرح ولو كان في الفرح المشهود في هذا العالم نوع أعظم من هذا الذي ذكره النبي لذكره، ولكن لا فرحة أعظم من فرحة هذا الواجد الفاقد لمادة حياته وبلاغه في سفره بعد إياسه من أسباب الحياة بفقده وهذا كشدة محبته لتوبة التائب المحب إذا اشتدت محبته للشيء وغاب عنه ثم وجده وصار طوع يده فلا فرحة أعظم من فرحته به.

فما الظن بمحبوب لك تحبه حباً شديداً أسره عدوك وحال بينك وبينه وأنت تعلم أن العدو سيسومه سوء العذاب ويعرضه لأنواع الهلاك وأنت أولى به منه وهو غرسك وتربيتك، ثم إنه انفلت من عدوه ووافاك على غير ميعاد فلم يفاجئك إلا وهو على بابك يتملقك ويترضاك ويستعينك ويمرغ خديه على تراب

---

(١) هو أبو عبد الله، شمس الدين، محمد بن أبي بكر بن أيوب الدمشقي، الشهير بابن قيم الجوزية، تفنن في علوم الإسلام كشيخه شيخ الإسلام ابن تيمية فكان عالماً بالتفسير والعقيدة والأصول والفقه والحديث والكلام، امتحن وأوذي مرات وحبس مع شيخه ابن تيمية في المرة الأخيرة بالقلعة منفرداً عنه، ولد سنة إحدى وتسعين وستمائة، و مات سنة إحدى وخمسين وسبعمائة. من كتبه: "إعلام الموقعين "، " زاد المعاد "، "مدارج السالكين، " حادي الأرواح "، "الروح " و غيرها، شذرات الذهب، (ج٦/ ١٦٨)، الأعلام، لخير الدين الزركلي، (ج٦/ ٥٦).

أعتابك فكيف يكون فرحك به وقد اختصصته لنفسك ورضيته لقربك وآثرته على سواه

هذا ولست الذي أوجدته وخلقته وأسبغت عليه نعمك والله عز وجل هو الذي أوجد عبده وخلقه وكونه وأسبغ عليه نعمه، وهو يحب أن يتمها عليه فيصير مظهراً لنعمه قابلاً لها شاكراً لها محباً لوليها مطيعاً له عابداً له معادياً لعدوه مبغضاً له، عاصياً له والله تعالى يحب من عبده معاداة عدوه ومعصيته ومخالفته كما يحب أن يوالى الله مولاه سبحانه ويطيعه ويعبده فتنضاف محبته لعبادته وطاعته والإنابة إليه إلى محبته لعداوة عدوه ومعصيته ومخالفته فتشتد المحبة منه سبحانه مع حصول محبوبه وهذا هو حقيقة الفرح.

وفي صفة النبي في بعض الكتب المتقدمة عبدي الذي سرت به نفسي وهذا لكمال محبته له جعله مما تسر نفسه به سبحانه.

ومن هذا ضحكه سبحانه من عبده حين يأتي من عبوديته بأعظم ما يحبه فيضحك سبحانه فرحاً ورضاً كما يضحك من عبده إذا ثار عن وطائه وفراشه ومضاجعة حبيبه إلى خدمته يتلو آياته ويتملقه.

ويضحك من رجل هرب أصحابه عن العدو فأقبل إليه وباع نفسه لله ولقاهم نحره حتى قتل في محبته ورضاه.

ويضحك إلى من أخفى الصدقة عن أصحابه لسائل اعترضهم فلم يعطوه فتخلف بأعقابهم وأعطاه سراً حيث لا يراه إلا الله الذي أعطاه فهذا الضحك منه حباً له وفرحاً به وكذلك الشهيد حين يلقاه يوم القيامة فيضحك إليه فرحاً به وبقدومه عليه.

وليس في إثبات هذه الصفات محذور ألبتة فإنه فرح ليس كمثله شيء وضحك ليس كمثله شيء وحكمه حكم رضاه ومحبته وإرادته وسائر صفاته فالباب باب واحد لا تمثيل ولا تعطيل" .

قصة وعبرة :

وما أجمل تلك الحكاية التي ساقها ابن القيم رحمه الله في مدارج

السالكين حيث قال: وهذا موضع الحكاية المشهورة عن بعض العارفين أنه رأى في بعض السكك باب قد فتح وخرج منه صبي يستغيث ويبكي، وأمه خلفه تطرده حتى خرج، فأغلقت الباب في وجهه ودخلت فذهب الصبي غير بعيد ثم وقف متفكرا، فلم يجد له مأوى غير البيت الذي أخرج منه، ولا من يؤويه غير والدته، فرجع مكسور القلب حزينا. فوجد الباب مرتجا فتوسده ووضع خده على عتبة الباب ونام، وخرجت أمه، فلما رأته على تلك الحال لم تملك أن رمت نفسها عليه، والتزمته تقبله وتبكي وتقول: يا ولدي، أين تذهب عني؟ ومن يؤويك سواي؟ ألم أقل لك لا تخالفني، ولا تحملني بمعصيتك لي على خلاف ما جبلت عليه من الرحمة بك والشفقة عليك وإرادتي الخير لك؟ ثم أخذته ودخلت فتأمل قول الأم: لا تحملني بمعصيتك لي على خلاف ما جبلت عليه من الرحمة والشفقة.

وتأمل قوله صلى الله عليه وسلم (الله أرحم بعباده من الوالدة بولدها) وأين تقع رحمة الوالدة من رحمة الله التي وسعت كل شيء؟

فإذا أغضبه العبد بمعصيته فقد أستدعى منه صرف تلك الرحمة عنه، فإذا تاب إليه فقد أستدعى منه ما هو أهله وأولى به.

فهذه تطلعك على سر فرح الله بتوبة عبده أعظم من فرح الواجد لراحلته في الأرض المهلكة بعد اليأس منها.

المبحث الرابع

طبقات التائبين

اعلم أن التائبين في التوبة على أربع طبقات [١]:

الطبقة الأولى: أن يتوب العاصي ويستقيم على التوبة إلى آخر عمره، فيتدارك ما فرط من أمره، ولا يحدث نفسه بالعود إلى ذنوبه، إلا الزلات التي

---

(١) إحياء علوم الدين، الإمام أبي حامد الغزالي، تحقيق سيد إبراهيم،(ج ٤ / ٦٦-٧٢) (باختصار)، دار الحديث - القاهرة، الطبعة الأولى١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

لا ينفك البشر عنها في العادات ممن لم يكن في رتبة النبوة فهذا هو الاستقامة على التوبة، وصاحبه هو السابق بالخيرات المستبدل بالسيئات حسنات واسم هذه التوبة : التوبة النصوح التي قال تعالى فيها :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾[١].

واسم هذه النفس : النفس المطمئنة التي قال فيها :

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾﴾[٢].

الطبقة الثانية : تائب سلك طريق الاستقامة في أمهات الطاعات، ترك كبائر الفواحش كلها إلا أنه ليس ينفك عن ذنوب تعتريه لا عن عمد وتجريد قصد، ولكن يبتلى بها في مجاري أحواله من غير أن يقدم عزماً على الإقدام عليها، ولكنه كلما أقدم عليها لام نفسه وندم وتأسف وجدد عزمه على أن يتشمر للاحتراز من أسبابها التي تعرضه لها. وهذه جديرة بأن تكون هي النفس اللوامة إذا تلوم صاحبها على ما تستهدف له من الأحوال الذميمة لا عن تصميم وعزم وتخمين رأي وقصد، وهي أغلب أحوال التائبين لأن الشر معجون بطينة الآدمي قلما ينفك عنه وإنما غاية سعيه أن يغلب خيره شره حتى يثقل ميزانه فترجح كفة الحسنات، فأما أن تخلو بالكلية كفة السيئات فذلك في غاية البعد وهؤلاء له من حسن الوعد من الله إذ يقول- سبحانه وتعالى - :

﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾[٣].

وإلى مثل هذه الرتبة الإشارة بقوله - ﷺ - عن ابن عباس : " المؤمن كالسنبلة يفيء أحياناً ويميل أحياناً "[٤].

وهؤلاء ما وصفهم الله بعدم السيئة أصلاً : قال تعالى :

---

(١) سورة التحريم، آية: ٨.
(٢) سورة الفجر، آية: ٢٧.
(٣) سورة النجم، آية: ٣٢.
(٤) أخرجه الطبراني والبيهقي عن ابن عباس بأسانيد حسنة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾﴾[1].

الطبقة الثالثة :

أن يتوب ويستمر على الاستقامة مدة، ثم تغلبه الشهوات في بعض الذنوب فيقدم عليها عن صدق وقصد شهوة لعجزه عن قهر الشهوة إلا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات وتارك جملة من الذنوب مع القدرة والشهوة، وإنما قهرته هذه الشهوة الواحدة أو الشهوتان وهو يود لو أقدره الله - تعالى - على قمعها وكفاه شرها وهذا أمنيته في حال قضاء الشهوة عند الفراغ يتندم ويقول ليتني لم أفعله وسأتوب عنه وأجاهد نفسي في قهرها لكنه تسول نفسه ويسوف توبته مرة بعد مرة ويوم بعد يوم. فهذه النفس هي التي تسمى المسوّلة وصاحبها من الذين قال الله تعالى فيهم :

﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾[2].

فأمره من حيث مواظبته على الطاعات وكراهته لما تعاطاه مرجوّ فعسى الله أن يتوب عليه، وعاقبته مخطرة من حيث تسويفه وتأخيره، فربما يختطف قبل التوبة ويقع أمره في المشيئة فإن تداركه الله بفضله وجبر كسره وامتن عليه بالتوبة التحق بالسابقين، و إن غلبته شقوته وقهرته شهوته فيخشى أن يحق عليه في الخاتمة ما سبق عليه من القول في الأزل.

الطبقة الرابعة :

أن يتوب ويجري مدة على الاستقامة ثم يعود إلى مقارفة الذنب أو الذنوب من غير أن يحدث نفسه بالتوبة ومن غير أن يتأسف على فعله بل ينهمك انهماك الغافل في اتباع شهواته فهذا من جملة المصرين، وهذه النفس

---

(١) سورة القصص، آية : ٥٤.

(٢) سورة التوبة، آية : ١٠٢.

هي : النفس الأمارة بالسوء الفرارة من الخير ويخاف على هذا سوء الخاتمة فأمره في مشيئة الله، فإن ختم له بالسوء شقى شقاوة لا آخر لها، وإن ختم له بالحسنى حتى مات على التوحيد فينتظر له الخلاص من النار ولو بعد حين، ولا يستحيل أن يشمله عموم العفو بسبب خفي لا تطلع عليه. وهذه التي قال فيها :

﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٥٣﴾[(١)].

الأعمال التي إذا أُتبع بها الذنب كان العفو عنه مرجواً :

أولاً : أعمال القلوب:

١- التوبة أو العزم على التوبة.
٢- وحب الإقلاع عن الذنب.
٣- وتخوف العقاب عليه.
٤- ورجاء المغفرة له.

ثانياً : أعمال الجوارح :

* أن تصلي عقيب الذنب ركعتين ثم تستغفر الله تعالى بعدهم سبعين مرة.
* وتقول سبحان الله العظيم وبحمده مائة مرة.
* ثم تتصدق بصدقة.
* ثم تصوم يوماً.

وفي الحديث : " تسبغ الوضوء وتدخل المسجد وتصلي ركعتين "[(٢)].

وفي الخبر : " إذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تكفرها السر بالسر والعلانية بالعلانية "[(٣)].

(١) سورة يوسف،آية: ٥٣.
(٢) قال المحقق: أخرجه أصحاب السنن من حديث أبي بكر، حديث صحيح.
(٣) قال المحقق: أخرجه البيهقي في الشعب من حيث معاذ، ورواه الطبراني من رواية عطاء بن يسار عن معاذ.

فوائد :

١- **المبادرة والمسارعة بالتوبة** : حين تقع في المعصية وتلم بها فبادر بالتوبة وسارع إليها، وإياك والتسويف والتأجيل فالأعمار بيد الله عز وجل، وما يدريك لو دعيت للرحيل وودعت الدنيا وقدمت على مولاك مذنباً عاصياً، ثم إن التسويف والتأجيل قد يكون مدعاة لاستمراء الذنب والرضا بالمعصية ولئن كنت الآن تملك الدافع للتوبة وتحمل الوازع عن المعصية فقد يأتيك وقت تبحث فيه عن هذا الدافع وتستحث هذا الوازع فلا يجيبك.

٢- **تأخير التوبة ذنب آخر** : كان العارفون بالله عز وجل يعدون تأخير التوبة ذنباً آخر ينبغي أن يتوبوا منه، قال العلامة ابن القيم (إن المبادرة إلى التوبة من الذنب فرض على الفور، ولا يجوز تأخيرها فمتى أخرها عصى بالتأخير، فإذا تاب من الذنب بقي عليه التوبة من التأخير)، وقل أن تخطر هذه ببال التائب، بل عنده أنه إذا تاب من الذنب لم يبقى عليه شيء آخر.

٣- **انكسار القلب بين يدي الرب كسرة تامة** : قد أحاطت به من جميع جهاته وألقته بين يدي ربه طريحاً ذليلاً خاشعاً.

٤- **تكرار التوبة بتكرار الذنب** : إذا تكرر الذنب من العبد فليكرر التوبة، ومنه أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال :(يا رسول الله : أحدنا يذنب، قال يكتب عليه، قال ثم يستغفر منه ويتوب، قال : يغفر له ويتاب عليه، قال : يكتب عليه، قال :ثم يستغفر ويتوب منه، قال : يغفر له ويتاب عليه.

قال فيعود فيذنب. قال : "يكتب عليه ولا يمل الله حتى تملوا ").

وقيل للحسن : ألا يستحي أحدنا من ربه يستغفر من ذنوبه ثم يعود، ثم يستغفر ثم يعود، فقال : ود الشيطان لو ظفر منكم بهذه، فلا تملوا من الاستغفار. (أي ود الشيطان أن يجعلكم تيأسون ولا تستغفرون).

٥- كرم الله-عز وجل - وجوده ورحمته ولطفه بعباده :

فإن تعاظمك ذنبك فاعلم أن النصارى قالوا في المتفرد بالكمال : ثالث ثلاثة.

فقال لهم: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٧٤﴾[١].

وهذا من كرمه تعالى وجوده ولطفه ورحمته بخلقه مع هذا الذنب العظيم وهذا الافتراء والكذب والإفك يدعوهم إلى التوبة والمغفرة فكل من تاب إليه تاب عليه.

٦- عدم القنوط من رحمة الله:

وإذا كدت تقنط من رحمته فان الطغاة الذين حرقوا المؤمنين بالنار عرضت عليهم التوبة:

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ۝١٠﴾[٢].

قال الحسن البصري[٣]: " انظروا إلى هذا الكرم والجود قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة".

---

(١) سورة المائدة، آية (٧٤).

(٢) سورة البروج، آية (١٠).

(٣) هو أبو سعيد الحسن البصري بن أبي الحسن، مولى زيد بن ثابت وقيل غيره، ولد في زمن عمر بن الخطاب، كان إماماً كبير الشأن، رفيع الذكر، رأسا في العلم والعمل. له " التفسير" رواه عن جماعة و "كتابه على عبد الملك بن مروان في الرد على "القدرية "، مات سنة عشر ومائة.(طبقات المفسرين للداوودي، ج١/ ١٥٠).

الفصل الثاني

فرح رسول الله ﷺ

المبحث الأول

فرح رسول الله بإسلام عكرمة وعدي بن حاتم

أولاً : فرح رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بإسلام عكرمة بن أبي جهل :

عن مالك عن ابن شهاب :أن أم حكيم بنت الحارث بن هشام وكانت تحت عكرمة بن أبي جهل[1] فأسلمت يوم الفتح وهرب زوجها عكرمة بن أبي جهل من الإسلام حتى قدم اليمن، فارتحلت أم حكيم حتى قدمت عليه باليمن فدعته إلى الإسلام فأسلم وقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفتح فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم وثب إليه فرحا وما عليه رداء حتى بايعه فثبتا على نكاحهما ذلك.

قال مالك وإذا أسلم الرجل قبل امرأته وقعت الفرقة بينهما إذا عرض عليها الإسلام فلم تسلم لأن الله تبارك وتعالى يقول في كتابه ﴿وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ﴾[2].

الفوائد من إسلام عكرمة :

١- الدعاة إلى الله اليوم بحاجة ماسة إلى وقفة طويلة مع قضية إسلام

---

(١) الشريف الرئيس الشهيد،أبو عثمان القرشي المخزومي المكي،نزل عكرمة يوم اليرموك فقاتل قتالاً شديداً ثم استشهد فوجدوا به بضعاً وسبعين من طعنة ورمية وضربة.

(٢) الموطأ،كتاب: النكاح،باب: نكاح المشرك إذا أسلمت زوجته قبله، رقم الحديث: ١١٣٤،(٢/ ٥٤٥).

عكرمة وفرح رسول الله به، وهي دعوة ملحة لهؤلاء الدعاة أن يتعاملوا مع نفوس الناس. ونخص بالذكر قيادات الخصوم ليحولوا تلك النفوس إلى الإسلام.

وليكن أعظم أهدافهم هو جعل طاقات وعبقريات هؤلاء الخصوم تنصب في معين الإسلام وتذود عنه.

أن تنتصر الجماعة المسلمة في معركة حربية. فتجندل بعض القيادات قتل ويلوذ بعد القواد بالفرار ثم يتأجج الحق والرغبة في الثأر في معركة جديدة شيء عظيم لكن الأعظم منه بلا شك أن تنتصر الجماعة المسلمة في معركة النفوس الكبرى وفي حلبة الصراع العظمى بين الجاهلية والإسلام فتفتح هذه القيادات صدورها للإسلام وتنضوي تحت لوائه هو النصر الأكبر ولا شك وليكن هدف الجماعة المسلمة الأعظم " نفس تحيها خير من إمارة لا تحصيها " .

لأن يهدي الله بك رجلاً خير لك من حمر النعم.

وفنَّ الدعوة لابد أن يلامس تلك النفوس لمساً حاداً، وينفذ إلى أعماقها نفوذاً حكيماً بحيث يكون هو المصير للمدعو ولا مصير غيره هو الحل ولا حل غيره.

أما إذا شعر العدو أو الخصم أن الإسلام هو الذي يذل، ويحطم مصالح. فسيبقى في إطار العداء لله على الدوام.

فهل لدى الجماعة المسلمة القوة النفسية ورحابة الصدر أن تقول لخصم من خصومها " مثله جهل الإسلام؟ ولو كان جعل نكايته وجدّه مع المسلمين لكان خيراً له ولقدمناه على غيره "، كما قالها النبي عن خالد بن الوليد رضي الله عنه؟

٢- دور المرأة المسلمة الحريصة على هداية زوجها. لقد جعلت أم حكيم بنت الحارث بن هشام رسالتها الحقيقية هي أن تقنع زوجها بالإسلام قاطعة في سبيل ذلك الأرض إلى اليمن باحثة عن زوجها تدعوه إلى أمان رسول الله ﷺ وطامحة في إسلامه بالرغم من أنها في أعتى بيئة عداء للإسلام.

- فأبوها الحارث بن هشام الذي لم يدخل الإسلام بعد.

- وعمها أبو جهل " فرعون هذه الأمة".

- وزوجها عكرمة بن أبي جهل.

فالبيئة تنضح بالكره لمحمد ﷺ والحقد عليه.

٣- حُسن استقباله - ﷺ - عكرمة حيث :

- كظم الكره والحقد عن أكبر كفار في التاريخ ومجرميهم أبي جهل إكراماً لابنه الذي يأتي للإسلام.

- القيام والوثوب لاستقبال هذا العدو الألد.

- مظاهر الفرح التي تملأ كيان النبي ﷺ ولما يعلن عكرمة إسلامه بعد.

فهل تفرح الجماعة المسلمة بالقيادات والطاقات التي تنضوي تحت لوائها وتُقدمها على غيرها لصالح الإسلام والمسلمين؟

إن على الجماعة المسلمة أن تقف بتدبر وتفكر كيف استطاع رسول الله ﷺ أن يوظف طاقات وقدرات كلاً من :

١- خالد بن الوليد رضي الله عنه.

٢- عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه.

٣- صفوان بن أُمية رضي الله عنه.

٤- عثمان بن طلحة رضي الله عنه.

لنُصرة الدين وإعلاء كلمة الله في الأرض.

ثانياً : فرح رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بإسلام عدي بن حاتم[1] :

«عن عدي بن حاتم قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس في المسجد، فقال القوم هذا عدي بن حاتم وجئت بغير أمان ولا كتاب، فلما دفعت إليه أخذ بيدي وقد كان قال قبل ذلك إني لأرجو أن يجعل

(١) أبو عبد الله،الأمير الشريف أبو وهب وأبو طريف الطائي، صاحب النبي ولدُ حاتم طيّىء الذي يضرب بجوده المثل: سير أعلام النبلاء،(١/ ٣٥٧).

الله يده في يدي، قال فقام فلقيته امرأة وصبي معها فقالا إن لنا إليك حاجة فقام معهما حتى قضى حاجتهما ثم أخذ بيدي حتى أتى بي داره فألقت له الوليدة وسادة فجلس عليها وجلست بين يديه فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال ما يفرك أن تقول لا إله إلا الله فهل تعلم من إله سوى الله قال قلت لا قال ثم تكلم ساعة، ثم قال إنما تفر أن تقول الله أكبر وتعلم أن شيئا أكبر من الله قال قلت لا قال فإن اليهود مغضوب عليهم وإن النصارى ضلال، قال قلت فإني جئت مسلما قال فرأيت وجهه تبسط فرحا قال ثم أمر بي فأنزلت عند رجل من الأنصار جعلت أغشاه آتيه طرفي النهار قال فبينا أنا عنده عشية إذ جاءه قوم في ثياب من الصوف من هذه النمار[١] قال فصلى وقام فحث عليهم ثم قال ولو صاع ولو بنصف صاع ولو بقبضة ولو ببعض قبضة يقي أحدكم وجهه حر جهنم أو النار ولو بتمرة ولو بشق تمرة فإن أحدكم لاقي الله وقائل له ما أقول لكم ألم أجعل لك سمعا وبصرا فيقول بلى فيقول ألم أجعل لك مالا وولدا فيقول بلى فيقول أين ما قدمت لنفسك فينظر قدامه وبعده وعن يمينه وعن شماله ثم لا يجد شيئا يقي به وجهه حر جهنم ليتق أحدكم وجهه النار ولو بشق تمرة فإن لم يجد فبكلمة طيبة فإني لا أخاف عليكم الفاقة فإن الله ناصركم ومعطيكم حتى تسير الظعينة[٢] فيما بين يثرب والحيرة [٣]أكثر ما تخاف على مطيتها السرق قال فجعلت أقول في نفسي فأين لصوص طيء"[٤].

---

(١) بكسر النون، جمع نمرة بالفتح، وهي كل شملة مخططة من مآزر الأعراب كأنها أخذت من لون النمر لما فيها من السواد والبياض، وهي من الصفات الغالبة، أي جاءه قوم لابسي أزر مخططة من صوف.

(٢) بفتح الظاء المعجمة وكسر العين المهملة، المرأة في الهودج، وهو في الأصل اسم للهودج.

(٣) بكسر المهملة وسكون التحتانية وفتح الراء، كانت بلد ملوك العرب الذين تحت حكم آل فارس، وكان ملكهم يومئذ إياس بن قبيصة الطائي وليها من تحت يد كسرى بعد قتل النعمان بن المنذر.

(٤) سنن الترمذي، كتاب: تفسير القرآن عن رسول الله، باب: ومن سورة فاتحة، رقم الحديث: ٢٩٥٣، (٥/ ٢٠٣).

من مناقب عدي بن حاتم :

١- جاء إلى عمر بن الخطاب فقال : أما تعرفني ؟ قال أعرفُك أقمت[١] إذ كفروا، ووفيت إذ غدروا، و أقبلت إذ أدبروا.

٢- عن عدي قال : ما دخل وقتُ صلاةٍ حتى أشتاق إليها.

٣- وعنه : ما أُقيمت الصلاة منذ أسلمت إلا وأنا على وضوء.

المبحث الثاني
فرح الأنبياء والصالحين

عن أبي سعيد الخدري قال: دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يوعك فوضعت يدي عليه فوجدت حرة بين يدي فوق اللحاف فقلت يا رسول الله ما أشدها عليك قال إنا كذلك يضعف لنا البلاء ويضعف لنا الأجر قلت يا رسول الله أي الناس أشد[٢] بلاء[٣] قال الأنبياء قلت يا رسول الله ثم من قال ثم الصالحون إن كان أحدهم ليبتلى بالفقر حتى ما يجد أحدهم إلا العباءة يحويها وإن كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرح أحدكم بالرخاء[٤].

وجاء في تفسير هذا الحديث[٥] :

"الأنبياء" :أي هم أشد في الابتلاء لأنهم يتلذذون بالبلاء كما يتلذذ غيرهم بالنعماء، ولأنهم لو لم يبتلوا لتوهم فيهم الألوهية، وليتوهن على الأمة الصبر على البلية .ولأن من كان أشد بلاء كان أشد تضرعا والتجاء إلى الله تعالى.

(ثم الأمثل فالأمثل) :

- قال الحافظ ابن حجر : الأمثل أفعل من المثالة والجمع أماثل وهم الفضلاء.
- وقال ابن الملك : أي الأشرف والأعلى فالأعلى رتبة ومنزلة. يعني من

---

(١) أي ثبت على الإسلام ولم ترتد. وقدم على أبي بكر في وقت الردة بصدقة قومه.

(٢) أي الناس أشد: أي أكثر وأصعب .

(٣) بلاء: أي محنة ومصيبة.

(٤) سنن ابن ماجه، كتاب: الفتن، باب: الصبر على البلاء، رقم الحديث: ٤٠٢٤، (٢/ ١٣٣٤).

(٥) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي.

هو أقرب إلى الله بلاؤه أشد ليكون ثوابه أكثر.

- قال الطيبي : ثم فيه للتراخي في الرتبة والفاء للتعاقب على سبيل التوالي تنزلا من الأعلى إلى الأسفل واللام في الأنبياء للجنس.
- قال القاري : ويصح كونها للاستغراق إذ لا يخلو منهم من عظيم محنة وجسيم بلية بالنسبة لأهل زمنه.

قوله : (يبتلى الرجل على حسب دينه) :أي مقداره ضعفا وقوة ونقصا وكمالا .

- في دينه صلبا :بضم الصاد المهملة أي قويا شديدا.
- اشتد بلاؤه : أي كمية وكيفية. وإن كان في دينه رقة :أي ذا رقة أو ضعف ولين .
- قال الطيبي : جعل الصلابة صفة له والرقة صفة لدينه مبالغة وعلى الأصل.
- (ابتلي على قدر دينه) :أي ببلاء هين سهل، والبلاء في مقابلة النعمة، فمن كانت النعمة عليه أكثر فبلاؤه أغزر .

فما يبرح البلاء : أي ما يفارق أو ما يزال

حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة : كناية عن خلاصه من الذنوب، فكأنه كان محبوسا ثم أطلق وخلي سبيله يمشي ما عليه بأس .

الابتلاء طريق النصر :

هذا ما أكده القرآن الكريم :

قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة: ٢١٤].

فالابتلاء بمثابة إعداد وتربية للنفوس المؤمنة وتمحيص الصف، إذ لابد للنفل أن يسقط وإن كان عالياً على الشجرة وفي قمتها، ولا بد للثمرة الطيبة وإن كانت ملتصقة بالأرض أن تثبت أمام الرياح الهوج حتى تنضج وينتفع بها.

الابتلاء دليل محبة الله:

ألم يؤذ رسل الله جميعاً من الكفار؟

ألم يدخل يوسف - عليه السلام - السجن ظلماً وبهتاناً ؟

ألم يبع يوسف - عليه السلام - ويعيش حياة الخدم في قصر عزيز مصر؟

ألم يطارد موسى - عليه السلام- من فرعون الطاغية الذي أصر على قتله والذين آمنوا معه؟

ألم يقتل يحيى - عليه السلام- إرضاء لبغي من بغايا بني إسرائيل ؟

ألم يطارد اليهود عيسى - عليه السلام- ويصمموا على قتله إلا أن الله نجاه منهم ؟

ألم يحكم على خليل الله إبراهيم - عليه السلام - بالموت حرقاً ؟

ألم يؤذ نوح - عليه السلام - من قومه ؟

ألم يعتد أهل مكة على رسولنا محمد - صلى الله عليه وسلم ؟

ألم يعتد سفهاء أهل الطائف على أحب خلق الله إلى الله ؟

ألم يحاول يهود بني النضير قتله غلية وغدراً ؟

ألم تضع امرأة يهودية في خيبر السم له في الطعام ؟

نعم فما من رسول من رسل الله - عليهم الصلاة والسلام إلا ابتلي وأوذي من قومه، بل وحاولوا قتله، قال تعالى يقرر هذه الحقيقة ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ [غافر: ٥].

المبحث الثالث

فرح رسول الله بأمن المدينة من شر الدجال اللعين

عن فاطمة بنت قيس قالت: صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم وصعد المنبر وكان لا يصعد عليه قبل ذلك إلا يوم الجمعة فاشتد ذلك على الناس فمن بين قائم وجالس فأشار إليهم بيده أن اقعدوا فإني والله ما قمت مقامي هذا لأمر ينفعكم لرغبة ولا لرهبة ولكن تميما الداري[١] أتاني فأخبرني

---

(١) صاحب رسول الله، أبو رقية، تميم بن أوس بن خارجة اللخمي الفلسطيني، وفد على النبي سنة تسع، فأسلم سير أعلام النبلاء، (١/ ٢٨٨).

خبرا منعني القيلولة من الفرح وقرة العين فأحببت أن أنشر عليكم فرح نبيكم إلا أن ابن عم لتميم الداري أخبرني أن الريح ألجأتهم إلى جزيرة لا يعرفونها فقعدوا في قوارب السفينة فخرجوا فيها فإذا هم بشيء أهذب أسود قالوا له ما أنت قال أنا الجساسة[١] قالوا أخبرينا قالت ما أنا بمخبرتكم شيئا ولا سائلتكم ولكن هذا الدير قد رمقتموه فأتوه فإن فيه رجلا بالأشواق إلى أن تخبروه ويخبركم فأتوه فدخلوا عليه فإذا هم بشيخ موثق[٢] شديد الوثاق يظهر الحزن شديد التشكي فقال لهم من أين قالوا من الشام قال ما فعلت العرب قالوا نحن قوم من العرب عم تسأل؟ قال ما فعل هذا الرجل الذي خرج فيكم قالوا خيرا نأوي قوما فأظهره الله عليهم فأمرهم اليوم جميع إلههم واحد ودينهم واحد قال ما فعلت عين زغر قالوا خيرا يسقون منها زروعهم ويستقون منها لسقيهم قال فما فعل نخل بين عمان وبيسان قالوا يطعم ثمره كل عام قال فما فعلت بحيرة الطبرية قالوا تدفق جنباتها من كثرة الماء قال فزفر ثلاث زفرات ثم قال لو انفلت من وثاقي هذا لم أدع أرضا إلا وطئتها برجلي هاتين إلا طيبة ليس لي عليها سبيل قال النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذا ينتهي فرحي هذه طيبة والذي نفسي بيده ما فيها طريق ضيق ولا واسع ولا سهل ولا جبل إلا وعليه ملك شاهر سيفه إلى يوم القيامة[٣].

قال السندي : " سيعلم أن فرحه كان بسبب أمن المدينة من شر اللعين".

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اللهم بارك لأهل المدينة " الحديث. وفيه : " إلا أن الملائكة مشتبكة بالملائكة على كل نقب من أنقابها ملكان يحرسانها لا يدخلها الطاعون ولا الدجال " قال ابن العربي "يجمع بين هذا وبين قوله على كل نقب ملكا ، إن سيف أحدهما مسلول والآخر بخلافه"

---

(١) هي الدابة وسميت بهذا الإسم لأنها تجسّ الأخبار للدجال.

(٢) الدجال اللعين.

(٣) سنن ابن ماجه، كتاب: الفتن، باب: فتنة الدجال وخروج عيسى ابن مريم ورقم الحديث: ٤٠٧٤، (٢/ ١٣٥٤).

المبحث الرابع

فرح الرسول - ﷺ بمبادرة المسلمين لدفع حاجة المحتاجين من المسلمين

عن المنذر بن جرير عن أبيه قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في صدر النهار قال: فجاءه قوم حفاة عراة مجتابي النمار[١] أو العباء متقلدي السيوف عامتهم من مضر بل كلهم من مضر فتمعر وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رأى بهم من الفاقة فدخل ثم خرج فأمر بلالاً فأذن وأقام فصلى ثم خطب فقال :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾[٢].

تصدق رجل من ديناره من درهمه من ثوبه من صاع بره من صاع تمره حتى قال ولو بشق تمرة قال فجاء رجل من الأنصار بصرة كادت كفه تعجز عنها بل قد عجزت قال ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب حتى رأيت وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم يتهلل[٣] كأنه مذهبة[٤] فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء.

قال الإمام النووي : " فيه استحباب جمع الناس للأمور المهمة ووعظهم وحثهم على مصالحهم وتحذيرهم من القبائح " .

وقال النووي : " وأما سبب سروره صلى الله عليه وسلم ففرحاً بمبادرة

---

(١) النمار: بكسر النون جمع نمرة بفتحها، وهي ثياب صوف فيها تنمير. و (العباء) بالمد وبفتح العين جمع عباءة وعباية لغتان. وقوله: مجتابي النمار أي خرقوها وقوروا وسطها.

(٢) سورة الحشر، آية (١٨).

(٣) يتهلل: أي يستنير فرحا وسرورا.

(٤) مذهبة: شبهه في حسنه ونوره بالمذهبة من الجلود، وجمعها مذاهب، وهي شيء كانت العرب تصنعه من جلود، وتجعل فيها خطوطا مذهبة يرى بعضها أثر البعض.

المسلمين إلى طاعة الله تعالى، وبذل أموالهم لله وامتثال أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولدفع حاجة هؤلاء المحتاجين وشفقة المسلمين بعضهم على بعض، وتعاونهم على البر والتقوى، وينبغي للإنسان إذا رأى شيئا من هذا القبيل أن يفرح ويظهر سروره".

وقوله صلى الله عليه وسلم : (من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها)

" فيه : الحث على الابتداء بالخيرات وسن السنن الحسنات، والتحذير من اختراع الأباطيل والمستقبحات، وسبب هذا الكلام في هذا الحديث أنه قال في أوله : (فجاء رجل بصرة كادت كفه تعجز عنها، فتتابع الناس) **وكان الفضل العظيم للبادي بهذا الخير**، والفاتح لباب هذا الإحسان"[١].

من الفوائد :

أولاً : تنفيس[٢] الكُرب[٣] :

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : " من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا، نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر، يسر الله عليه في الدنيا والآخرة ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه ..[٤]"

وعن أبي سعيد الخدري مرفوعاً : " أيما مؤمن أطعم مؤمناً على جوع، أطعمه الله يوم القيامة من ثمار الجنة، وأيما مؤمن سقى مؤمناً على ظمأ، سقاه الله يوم القيامة من **الرحيق المختوم**[٥]، وأيما مؤمن كسا مؤمناً على عُري كساه

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي.

(٢) تنفيس: مأخوذة من تنفيس الخناق، كأنه يُرخي له الخناق حتى يأخذ نفساً: والمراد أن يُخفف عنه منها.

(٣) **الكُربة**: هي الشدة العظيمة التي تُوقعُ صاحبها في الكَرب.

(٤) رواه مسلم برقم (٢٦٩٩).

(٥) الرحيق: الشراب الخاص الذي لا غش فيه. والمختوم: الذي يختم من أوانيها وهو عبارة عن نفاستها وكرامتها.

الله من **خضر الجنة**[١] "[٢].

لماذا قال "كُربة من كُرب يوم القيامة " ولم يقل من كرب الدنيا والآخرة"؟

قال ابن رجب : " إن الكرب هي الشدائد العظيمة، وليس كل أحد يحصل له ذلك في الدنيا، بخلاف الأعسار والعورات المحتاجة إلى الستر، فإن أحداً لا يكاد يخلو في الدنيا من ذلك ولو بتعسر بعض الحاجات المهمة وقيل : لأن كرب الدنيا بالنسبة إلى كرب الآخرة لا شيء، فادخر الله جزاء تنفيس الكرب عنده، لينفس به كرب الآخرة " [٣].

وواقعنا المعاصر يعج بمثل هذه الكُرب في جميع أنحاء المعمورة، فإذا وضعت يدك على خريطة العالم فسوف تجد، من يموت جوعاً وعطشاً، ومن لا يجد من كسوة يحتمي بها من حر الصيف وبرد الشتاء، ومن يموت لانتشار الأمراض المتوطنة، ومن استشهد عائلها في ساحات الوغى، و لم تجد بعد الله من يساعدها على سد رمق الأفواه الجياع وسترها من الذئاب البشرية إلا من رحم الله - عز وجل - ومن هدم بيته على ما فيه ونام وأولاده، مفترش الأرض ملتحف السماء، وتجد الشيخ الطاعن في السن، والمرأة التي لا حول لها ولا قوة لا تجد من يمد لها يد العون حتى تعيش عيشة الكفاف.

والعجب كل العجب أن هؤلاء حملوا عبء الدفاع عن الأمة الإسلامية جميعها، فهم مصدر عزها وسؤددها، وموطن الشرف فيها، وهم بفضل الله مصدر إزعاج أعداء الله من اليهود والنصارى، بل هم بفضل الله، التي تُسن من أجلهم القوانين والقرارات، التي تُحد من معاونة أهل الخير وأولوا الطول تحت شعار كاذب " دعم الإرهاب"، فأُغلقت الجمعيات الخيرية التي كانت

---

(١) خُضر الجنة: جمع أخضر: أي من ثيابها الخضر.

(٢) رواه الترمذي برقم (٢٤٤٩).

(٣) جامع العلوم والحكم، ابن رجب، تحقيق شعيب الأرناؤوط وإبراهيم باجس، ص ٢٨٧، الطبعة السابعة، سنة ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان.

تقوم بجهد مشكور من أجل الحفاظ على الأسر المسلمة، والتدين والأخلاق والآداب الإسلامية، ومساعدة المجاهدين في كل مكان، ضد الخطر اليهودي والصليبي، وما يحدث في فلسطين والعراق والشيشان وأفغانستان وغيرهم الكثير لا يخفى على المهتمين بقضايا الأمة بل أصبح لا يخفى على رجل الشارع العادي.

فهل تستجيب الأمة لمثل هذه الخطط والإملاءات وتترك المسلمين لقمة سائغة في فم أعداءها؟

أم تقوم بما فرضه الله عليها من تنفيس الكرب وتفريجها، حتى يفرج الله عنا ما نحن فيه في الدنيا، ويوم القيامة، ويُسر بنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مستقبلنا على الحوض بفرح واستبشار.

ثانياً : التيسير على المُعسر :

" و من يسر على مُعسر، يسر الله عليه في الدنيا والآخرة"

قال ابن رجب : " هذا يدل على أن الإعسار قد يحصل في الآخرة، وقد وصف الله يوم القيامة بأنه يوم عسير وأنه على الكافرين غير يسير، فدل على أنه يسير على غيرهم، و **قال** ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ (الفرقان : ٢٦).

والتيسير على المعسر في الدنيا من جهة المال يكون بأحد أمرين :

- إما بإنظاره إلى الميسرة، وذلك واجب لقوله تعالى : ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ (البقرة : ٢٨٠).

- وتارة بالوضع عنه إن كان غريماً، و إلا فإعطائه ما يزول به إعساره وكلاهما له فضل ".

عن أبي هريرة عن النبي - صلى الله عليه وسلم قال : " كان تاجرُ يداين الناس، فإذا رأى معسراً، قال لصبيانه : تجاوزوا عنه، لعل الله أن يتجاوز عنا فتجاوز الله عنه[1][2].

---

(١) رواه البخاري، برقم (٢٠٧٨) و (٣٤٨٠).

(٢) جامع العلوم والحكم، ابن رجب، ص ٢٨٩ - ٢٩٠.

رابعاً : قضاء الحوائج :

"بعث الحسن البصري قوماً في قضاء حاجة لرجل وقال لهم : مُروا بثابت البناني، فخذوه معكم، فأتوا ثابتاً، فقال : أنا معتكف، فرجعوا إلى الحسن فأخبروه فقال : قولوا له : يا أعمش أما تعلم أن مشيك في حاجة أخيك المسلم خير لك من حجة بعد حَجَةٍ ؟ فرجعوا إلى ثابت فترك اعتكافه وذهب معهم.

وكان عمر يتعاهد الأرامل فيستقي لهن الماء بالليل ورآه طلحة بالليل يدخل على امرأةٍ فدخل إليها نهاراً فإذا هي عجوز عمياء مقعدة فسألها : ما يصنع هذا الرجل عندك ؟ قالت : هذا له منذ كذا وكذا يتعاهدني يأتيني بما يُصلحني، ويخرج عني الأذى، فقال طلحة : ثكلتك أمُك يا طلحة عثرات عمر تتبع ؟" [١].

(١) رواه أبو نعيم في الحلية،(ج١/ ٤٨).

فرح المؤمنين

المبحث الأول

فرح المؤمنين بفضل الله

﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾[١].

" أي بهذا الذي جاءهم من الله من الهدى ودين الحق فليفرحوا فإنه أولى ما يفرحون به "هو خير مما يجمعون" أي من حطام الدنيا وما فيها من الزهرة الفانية الذاهبة لا محالة".

قال القرطبي :

قال أبو سعيد الخدري[٢] وابن عباس[٣] رضي الله عنهما : فضل الله القرآن، ورحمته الإسلام. وعنهما أيضا : فضل الله القرآن، ورحمته أن جعلكم من أهله.

وعن الحسن والضحاك ومجاهد وقتادة: فضل الله الإيمان، ورحمته القرآن.

---

(١) يونس : ٥٨.

(٢) الإمام المجاهد، مفتي المدينة، سعد بن مالك بن سنان، شهد الخندق وبيعة الرضوان حدث عن النبي فأكثر وأطاب وكان أحد الفقهاء والمجتهدين، مات سنة أربع وسبعين (تهذيب سير أعلام النبلاء،ج١/ ٣٥٩).

(٣) حبر الأمة، وفقيه العصر، إمام التفسير، أبو العباس عبد الله، ابن عم رسول الله،القرشي الهاشمي المكي، الأمير رضي الله عنه، صحب رسول الله نحواً من ثلاثين شهراً وحدث عنه، مات في الطائف سنة ثمان أو سبع وستين وقيل عاش إحدى وسبعين سنة (تهذيب سير أعلام النبلاء،ج١/ ٣٨٩).

قال الرازي: "تقديره: بفضل الله وبرحمته فليفرحوا : يعني يجب أن لا يفرح الإنسان إلا بذلك. واعلم أن هذا الكلام يدل على أمرين :

أحدهما : أنه يجب أن لا يفرح الإنسان بشيء من الأحوال الجسمانية ويدل عليه وجوه :

الأول : أن جماعة من المحققين قالوا : لا معنى هذه اللذات الجسمانية إلا دفع الآلام، والمعنى العدمي لا يستحق أن يُفرح به.

الثاني : أن بتقدير أن تكون هذه اللذات صفات ثبوتية لكنها معنوية من وجوه :

الأول : أن التقدير بآلامها القوي من الانتفاع بلذاتها ألا ترى أن أقوى اللذات الجسمانية لذة الوقاع ولا شك أن الالتذاذ بها أقل مرتبة من الاستضرار بألم القولنج وسائر الآلام القوية.

الثاني : أن مداخل اللذات الجسمانية قليلة فإنه لا سبيل إلى تحصيل اللذات الجسمانية إلا بهذين الطريقين أعني لذة البطن والفرج. وأما الآلام : فإن كل جزء من أجزاء بدن الإنسان معه نوع آخر من الآلام ولكل نوع فيها خاصية ليست للنوع الآخر.

الثالث : أن اللذات الجسمانية لا تكون خالصة البتة بل تكون ممزوجة بأنواع من المكاره، فلو لم يحصل لذة الأكل والوقاع إلا إتعاب النفس في مقدماتها مواقعتها لكفى.

الرابع : أن اللذات الجسمانية لا تكون باقية فكلما كان الالتذاذ بها أكثر كانت الحسرات الحاصلة من خوف فواتها أكثر وأشد ولذلك قال المعري :

إن حزن في ساعة الموت أضعاف سرور في ساعة الميلاد

فمن المعلوم أن الفرح الحاصل عند حدوث الولد لا يعادل الحزن الحاصل عند موته.

الخامس : أن اللذات الجسمانية حال حصولها ممتنعة البقاء، لأن لذة الأكل لا تبقى بحالها بل كما زال ألم الجوع زال الالتذاذ بالأكل ولا يمكن

استبقاء تلك اللذة.

السادس : أن اللذات الجسمانية التذاذ بأشياء خسيسة، فإنها التذاذ بكينات حاصلة في أجسام رخوة سريعة الفساد مستعدة للتغير فأما اللذات الروحية فإنها بالضد في جميع هذه الجهات، فثبت أن الفرح باللذات الجسمانية باطل وأما الفرح الكامل فهو بالروحانيات والجواهر المقدسة وعالم الجلال ونور الكبرياء.

فإذا حصلت اللذات الروحانية فإنه يجب على العاقل أن لا يفرح بها من حيث هي هي، بل يجب أن يفرح بها من حيث أنها من الله تعالى وبفضله وبرحمته.

فلهذا السبب قال الصديقون : من فرح بنعمة الله من حيث أنها تلك النعمة فهو مشرك، أما من فرح بنعمة الله من حيث أنها من الله كان فرحه بالله وذلك هو غاية الكمال ونهاية السعادة " فقوله سبحانه ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ يعني : فليفرحوا بتلك النعم لا من حيث هي هي بل من حيث أنها بفضل الله وبرحمة الله "[١].

قال صاحب الظلال : " فبهذا الفضل الذي آتاه الله عباده، وبهذه الرحمة التي أفاضها عليهم من الإيمان .. فبذلك وحده فليفرحوا، فهذا هو الذي يستحق الفرح. لا المال ولا أعراض هذه الحياة. إن ذلك هو الفرح العلوي الذي يطلق النفس من عقال المطامع الأرضية والأعراض الزائلة، فيجعل هذه الأعراض خادمة للحياة لا مخدومة ويجعل الإنسان فوقها وهو يستمتع بها لا عبداً لها خاضعاً لها والإسلام لا يحقر أعراض الحياة الدنيا ليهجرها الناس ويزهدوا فيها.إنما هو يزنها بوزنها ليستمتع بها الناس وهم أحرار الإرادة طلقاء اليد، مطمحهم أعلى من هذه الأعراض وآفاقهم أسمى من دنيا الأرض. الإيمان عندهم هو النعمة، وتأدية مقتضيات الإيمان هو الهدف. والدنيا بعد ذلك

---

(١) تفسير الرازي، (٩/ ١٢٤)، دار الفكر، بيروت - لبنان، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

مملوكة لهم لا سلطان لها عليهم "[١].

لماذا أمر الله بالفرح بفضله ورحمته ؟

قال الشيخ السعدي[٢] : " لأن ذلك مما يوجب انبساط النفس ونشاطها، و شكرها لله تعالى وقوتها وشدة الرغبة في العلم والإيمان الداعي للازدياد منهما وهذا فرح محمود "[٣].

قال ابن القيم : " فذلك خير من كل ما يجمع الناس من أعراض الدنيا وزينتها أي هذا هو الذي ينبغي أن يفرح به ومن فرح به فقد فرح بأجل مفروح به لا ما يجمع أهل الدنيا منها فإنه ليس بموضع للفرح لأنه عرضة للآفات ووشيك الزوال ووخيم العاقبة وهو طيف خيال زار الصب في المنام ثم انقضى المنام وولى الطيف وأعقب مزاره الهجران"[٤].

نظرة الرعيل الأولون إلى قيم الحياة :

عن عقبة بن الوليد بن عمرو قال : سمعت أيفع بن عبد الله الكلاعي يقول : " لما قدم خراج العراق إلى عمر- رضي الله عنه - خرج عمر ومولى له، فجعل عمر يعد الأبل فإذا هي أكثر من ذلك فجعل يقول : الحمد لله تعالى، ويقول مولاه هذا والله من فضل الله ورحمته، فقال عمر : كذبت ليس هو الذي يقول تعالى : ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾. هكذا كان الرعيل الأولون ينظرون إلى قيم الحياة، كانوا يعدون الفضل الأول والرحمة الأولى هي ما جاءهم من الله من موعظة وهدى، فأما المال وأما الثراء، وأما النصر ذاته فهو تابع. لذلك كان النصر يأتيهم وكان المال ينثال عليهم، وكان الثراء يطلبهم ..إن طريق هذه الأمة

---

(١) الظلال،(٣/ ١٧٩٩).

(٢) هو الشيخ عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله آل سعدي التميمي ولد رحمه الله بعنيزة بالقصيم السعودية سنة ١٣٠٧ هـ وكان عالماً محرراً نبغ في علوم عديدة منها العقيدة، والتفسير، والفقه توفي رحمه الله سنة ١٣٦٧ هـ انظر: ترجمته في مشاهير علماء نجد: ٣٩٢.

(٣) تفسير السعدي، ص ٤١٩.

(٤) كتاب مدارج السالكين، الجزء ٣، صفحة ١٥٧.

واضح، إنه في هذا الذي يسنه لها قرآنها وفي سيرة الصدر الأول الذين فهموه من رجاله .. هذا هو الطريق "(١).

المبحث الثاني

فرح المؤمنين بالعلم النافع

﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴿٣٦﴾﴾(٢).

يقول تعالى ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ وهم قائمون بمقتضاه ﴿يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ أي من القرآن لما في كتبهم من الشواهد على صدقه والبشارة به".

" أفضل ما اكتسبته النفوس، وحصلته القلوب، ونال به العبد في الدنيا والآخرة هو العلم والإيمان، ولهذا قرن بينهما سبحانه في قوله : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ﴾(٣). وقوله تعالى : ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾(٤).

وهؤلاء هم خلاصة الوجود ولبّه، والمؤهلون للمراتب العالية "(٥).

والعلم النافع " تركة الأنبياء وتراثهم. وأهله عصبتهم ووراثهم. وهو حياة القلوب. ونور البصائر. وشفاء الصدور. ورياض العقول. ولذة الأرواح. وأنس المستوحشين. ودليل المتحيرين. وهو الميزان الذي توزن به الأقوال والأعمال والأحوال. وهو الحاكم المفرق بين الشك واليقين، والغي والرشاد، والهدى والضلال.

به يُعرف الله ويُعبد ويُذكر ويُوحد. وبه اهتدى السالكون، ومن طريقه وصل إليه الواصلون. ومن بابه دخل عليه القاصدون.

به تُعرف الشرائع والأحكام، ويتميز الحلال من الحرام. وبه توصل

---

(١) الظلال (٣/ ١٧٩٩-١٨٠٠).
(٢) الرعد: ٣٦.
(٣) سورة الروم، الآية: ٥٦.
(٤) سورة المجادلة، الآية: ١١.
(٥) الفوائد، ابن القيم، ص ١٥٤-١٥٥، تحقيق محمد عثمان الخشت، دار الكتاب العربي بيروت لبنان، الطبعة الرابعة، عام ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

الأرحام وبه تُعرف مراضي الحبيب، وبمعرفتها ومتابعتها يوصل إليه من قريب.

وهو إمام والعمل مأموم. وهو قائد والعمل تابع. وهو الصاحب في الغربة والمحدث في الخلوة، والأنيس في الوحشة. والكاشف عن الشبهة. والغي الذي لا فقر على من ظفر بكنزه والكنف الذي لا ضيعة على من آوى إلى حرزه. مذاكرته تسبيح. والبحث عنه جهاد. وطلبه قربة. وبذله صدقة. ومدارسته تعدل بالصيام والقيام والحاجة إليه أعظم منها إلى الشراب والطعام "(١).

قال الإمام أحمد: " الناس إلى العلم أحوج منهم إلى الطعام والشراب.لأن الرجل يحتاج إلى الطعام والشراب في اليوم مرة أو مرتين وحاجته إلى العلم بعدد أنفاسه".

وقال الشافعي: طلب العلم أفضل من صلاة النافلة.

وقال ابن وهب: " كنت بين يدي مالك - رضي الله عنه - فوضعت الواحي وقمت أصلي، فقال الذي قمت إليه ليس بأفضل مما قمت عنه ".

ولقد رحل كليم الله - موسى بن عمران - عليه الصلاة والسلام - في طلب العلم هو وفتاه حتى مسهما النصب في سفرهما في طلب العلم وهو من أكرم الخلق على الله وأعلمهم به.

وأمر الله رسوله أن يسأله المزيد منه فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾(٢)(٣).

من علامات علماء الآخرة:

١- **أن لا يطلب الدنيا بعلمه** فإن أقل درجات العالم أن يدرك حقارة الدنيا وخستها وكدورتها وانصرامها وعظم الآخرة ودوامها وصفاء نعيمها وجلالة ملكها ويعلم أنهما متضادتان وأنهما كالضرتين مهما أرضيت أحداهما أسخطت الأخرى وأنهما ككفتي الميزان مهما رجحت أحداهما خفت الأخرى

---

(١) تهذيب مدارج السالكين، ابن القيم،تحقيق عبد المنعم صالح العلي العزي، ص ٤٣٢- ٤٣٣.
(٢) سورة طه،الآية: ١١٤.
(٣) تهذيب مدارج السالكين، ابن القيم، تحقيق عبد المنعم صالح العلي العزي، ص ٤٣٣.

وأنهما كالمشرق والمغرب مهما قربت أحداهما بعدت عن الآخر وأنهما كقدحين أحدهما مملوء والآخر فارغ فبقدر ما تصب منه في الآخر حتى يمتلىء يفرغ الآخر.

٢- **الخشوع والزهد** قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[1].

٣- **لا يخالف فعله قوله** بل لا يأمر بالشيء ما لم يكن هو أول عامل به: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾[2].

قال الشاعر:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

وقال ابن الجوزي[3]: " إن الله لا يخلي الأرض من قائم بالحجة، جامع بين العلم والعمل، عارف بحقوق الله تعالى، خائف منه، فذلك قطب الدنيا، ومتى مات أخلفه الله عوضه، وربما لم يمت حتى يرى من يصلح للنيابة عنه في كل نائبة، ومثل هذا لا تخلو منه فهو بمقام النبي في الأمة، وهذا الذي أصفه يكون قائماً بالأصول، حافظاً للحدود، وربما قل علمه أو قلت معاملته.

فأما الكاملون في جميع الأدوات فيندر وجودهم فيكون في الزمان البعيد منهم واحد "[4].

---

(١) سورة آل عمران،الآية: ١٩٩.

(٢) سورة الصف،الآية: ٣.

(٣) الشيخ الإمام العلامة، الحافظ المفسر، شيخ الإسلام، مفخر العراق جمال الدين، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد القرشي التيمي البكري البغدادي الحنبلي الواعظ صاحب التصانيف، ولد سنة تسع أو عشر وخمس مئة، كان بحراً في التفسير، علامة في السير والتاريخ، موصوفاً بحسن الحديث، ومعرفة فنونه، فقيهاً عليماً بالإجماع والاختلاف، قال: كتبت ألفي مجلد، وتاب على يدي مائة ألف، وأسلم على يدي عشرون ألفاً، توفي ليلة الثالث عشر من رمضان سنة سبع وتسعين وخمس مئة. (تهذيب سير أعلام النبلاء، ج٤/ ١٦٣٦).

(٤) صيد الخاطر،ابن الجوزي، ص ٥٥.

٤- غير مائل إلى الترفه في المطعم والمشرب والتنعم في الملبس والتجمل في الأثاث والمسكن :

بل يؤثر الاقتصاد في جميع ذلك ويتشبه بالسلف ويميل إلى الاكتفاء بالأقل في جميع ذلك وكلما زاد إلى طرفه القلة ميله ازداد من الله قربة وارتفع في علماء الآخرة حزبه.

٥- أن يكون مستقصياً عن السلاطين فلا يدخل عليهم ألبتة ما دام يجد إلى الفرار عنهم سبيلاً بل ينبغي أن يحترز عن مخالطتهم وإن جاءوا إليه فإن الدنيا حلوة خضرة وزمامها بأيدي السلاطين. والمخالط لا يخلو عن تكلف في طيب مرضاتهم واستمالة قلوبهم مع أنهم ظلمة. وعلى الجملة فمخالطتهم مفتاح للشرور وعماء الآخرة طريق الاحتياط.

٦- أن لا يكون مسارعاً في الفتيا بل يكون متوقفاً محترزاً ما وجد إلى ذلك سبيلاً.

فإن سُئل عما يعلمه تحقيقاً بنص كتاب الله أو بنص حديث أو إجماع أو قياس جلي أفتى، وإن سُئل عما يشك فيه قال لا أدري ! وإن سُئل عما يظنه باجتهاد وتخمين احتاط ودفع عن نفسه وأحال إلى غيره إن كان في غيره غنية هذا هو الحزم.

٧- أن يكون شديد العناية بتقوية اليقين :

فإن اليقين هو رأس مال الدين قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : "اليقين الإيمان كله " (١).

٨- أن يكون حزيناً منكسراً مطرقاً صامتاً يظهر أثر الخشية على هيئته وكسوته وسيرته وحركته وسكونه ونطقه وسكوته لا ينظر إليه ناظر إلا وكان نظره مذكراً لله تعالى وكانت صورته دليلاً على عمله، فهي لبسة الأنبياء وسيما الصالحين والصديقين والعلماء.

---

(١) أخرجه البيهقي في الزهد والخطيب في التاريخ من حديث ابن مسعود بإسناد جيد.

قيل خمس من الأخلاق هي من علامات علماء الآخرة مفهومة من خمس آيات في كتاب الله - عز وجل - :

- **الخشية** : فمن قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ (فاطر : ٢٨).

- **الخشوع** : فمن قوله تعالى : ﴿خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ (آل عمران : ١٩٩).

- **التواضع** : فمن قوله تعالى : ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الحجر : ٨٨).

- **حسن الخلق** : فمن قوله تعالى : ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ (آل عمران : ١٥٩).

- **الزهد** : فمن قوله تعالى : ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ (القصص : ٨٠).

٩- **أن يكون أكثر بحثه عن علم الأعمال** وعما يفسدها ويشوش القلب ويهيج الوسواس ويثير الشر فإن أصل الدين التوقي من الشر ولذلك قيل :

عرفت الشـــر لا للشـــر لكن لتوقيه

ومن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه

١٠- **أن يكون اعتماده في علومه على بصيرته** وإدراكه بصفاء قلبه لا على الصحف والكتب ولا على تقليد ما يسمعه من غيره، فإذا قلد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فينبغي أن يكون حريصاً على فهم أسراره، فإن المقلد إنما يفعل الفعل لأن صاحب الفعل - صلى الله عليه وسلم- لسر فينبغي أن يكون شديد البحث عن أسرار الأعمال والأقوال فإنه إن كان اكتفى بحفظ ما يقال كان وعاء للعلم ولا يكون عالماً.

١١- **أن يكون شديد التوقي من محدثات الأمور** وإن اتفق عليها الجمهور فلا يغرنه إطباق الخلق على ما أحدث بعد الصحابة - رضي الله عنهم - وليكن حريصاً على التفتيش على أحوال الصحابة وسيرتهم وأعمالهم وما كان فيه أكثر همهم من خوف وحزن وتفكر ومجاهدة ومراقبة الظاهر والباطن واجتناب دقيق

الإثم وجليله والحرص على إدراك خفايا شهوات النفوس ومكايد الشيطان، واعلم أن أعلم أهل الزمان وأقربهم إلى الحق أشبههم بالصحابة وأعرفهم بطريق السلف فمنهم أخذ الدين.

فكن أحد رجلين إما متصفاً بهذه الصفات أو معترفاً بالتقصير مع الإقرار به وإياك أن تكون الثالث [١].

المبحث الثالث

فرح المؤمنين بنصر الله

﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾﴾ [٢].

كانت الفرس والروم، في ذلك الوقت، من أقوى دول الأرض. وكان بينهما من الحروب والقتال ما يكون بين الدول المتوازنة. وكانت الفرس مشركين، يعبدون النار وكانت الروم أهل كتاب، ينتسبون إلى التوارة والإنجيل وهم أقرب للمسلمين من الفرس فكان المسلمون يحبون غلبتهم وظهورهم على الفرس وكان المشركون، لاشتراكهم والفرس في الشرك، يحبون ظهور الفرس على الروم.فظهر الفرس على الروم، وغلبوهم غلباً لم يحط بملكهم، بل أدنى أرضهم، ففرح بذلك مشركو مكة، وحزن المسلمون، فأخبرهم الله ووعدهم أن الروم ستغلب الفرس.

﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٤، ٥] أي للروم أصحاب قيصر ملك الشام على فارس أصحاب كسرى وهم المجوس وكانت نصرة الروم على فارس يوم وقعة بدر في قول طائفة كثيرة من العلماء كابن عباس والثوري والسدي وغيرهم.

روى ابن جرير بإسناده عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال :

---

(١) إحياء علوم الدين، الإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي، تحقيق سيد إبراهيم، (ج ١/ ٩٨- ١٣٤) باختصار، دار الحديث القاهرة الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

(٢) الروم: ٤.

كانت فارس ظاهرة على الروم. وكان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس، لأنهم أهل كتاب، وهم أقرب إلى دينهم فلما نزلت: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢﴾ [الروم: ١، ٢] قالوا يا أبا بكر. إن صاحبك يقول: إن الروم تظهر على فارس في بضع سنين. قال: صدق: هل لك أن نقامرك[١]؟ فبايعوه على أربع قلائص إلى سبع سنين. فمضت السبع ولم يكن شيء. ففرح المشركون بذلك، فشق على المسلمين، فذكر ذلك للنبي -ﷺ- فقال: " ما بضع سنين عندكم؟ قالوا دون العشر.قال: " اذهب فزايدهم وازدد سنتين في الأجل ". قال فما مضت السنتان حتى جاءت الركبان بظهور الروم على فارس. ففرح المؤمنون بذلك ".

من الإيحاءات القوية في النص القرآني قال: صاحب الظلال: "ذلك الترابط بين الشرك والكفر في كل مكان وزمان أمام دعوة التوحيد والإيمان ومع أن الدول قديماً لم تكن شديدة الاتصال والأمم لم تكن وثيقة الارتباط كما هو الشأن في عصرنا الحاضر مع هذا فإن المشركين في مكة كانوا يحسون أن انتصار المشركين في أي مكان على أهل الكتاب هو انتصار لهم وكان المسلمون كذلك يحسون أن هناك ما يربطهم بأهل الكتاب وكان يسوءهم أن ينتصر المشركون في أي مكان وكانوا يدركون أن دعوتهم وأن قضيتهم ليست في عزلة عما يجري في أنحاء العالم من حولهم ويؤثر في قضية الإيمان.

وهذه الحقيقة البارزة هي التي يغفل عنها الكثيرون من أهل زماننا، ولا ينتبهون إليها كما انتبه المسلمون والمشركون في عصر رسول الله -ﷺ- منذ حوالي أربعة عشر قرناً ومن ثم ينحصرون داخل حدود جغرافية أو جنسية، ولا يدركون أن القضية في حقيقتها هي قضية الكفر والإيمان وأن المعركة في صميمها هي المعركة بين حزب الله وحزب الشيطان.

وما أحوج المسلمين اليوم في جميع بقاع الأرض أن يدركوا طبيعة المعركة، وحقيقة القضية فلا تلهيهم عنها تلك الأعلام الزائفة التي تتستر بها

---

(١) أي نراهنك.

أحزاب الشرك والكفر فإنهم لا يحاربون المسلمين إلا على العقيدة مهما تنوعت العلل والأسباب "[١].

قال ابن عاشور[٢] : ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ : أي بنصر الله إياهم إذ نصر المماثلين في كونهم غير مشركين إذ كان الروم يومئذ على دين المسيح "[٣].

" أي ويوم إذ يغلبون يفرح المؤمنون بنصر الله أي بنصر الله إياهم على الذين كانوا غلبوهم من قبل، وكان غلبهم السابق أيضا بنصر الله إياهم على الروم لحكمة اقتضت هذا التعاقب وهي تهيئة أسباب انتصار المسلمين على الفريقين إذا حاربوهم بعد ذلك لنشر دين الله في بلادهم، وقد أومأ إلى هذا قوله :لله الأمر من قبل ومن بعد".

وأضيف النصر إلى اسم الجلالة للتنويه بذلك النصر وأنه عناية لأجل المسلمين.

وجملة: ﴿يَنصُرُ مَن يَشَاءُ﴾ : تذييل لأن النصر المذكور فيها عام بعموم مفعوله وهو: ﴿مَن يَشَاءُ﴾ فكل منصور داخل في هذا العموم، أي من يشاء نصره لحكم يعلمها، فالمشيئة هي الإرادة، أي ينصر من يريد نصره، وإرادته تعالى لا يسأل عنها، ولذلك عقب بقوله : ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ فإن العزيز المطلق هو الذي يغلب كل مغالب له، وعقبه بـ ﴿الرَّحِيمُ﴾ : للإشارة إلى أن عزته تعالى لا تخلو من رحمة بعباده ولولا رحمته لما أدال للمغلوب دولة على غالبه مع أنه تعالى هو الذي أراد غلبة الغالب الأول، فكان الأمر الأول بعزته والأمر الثاني برحمته للمغلوب المنكوب وترتيب الصفتين العليتين منظور فيه لمقابلة كل صفة

---

(١) الظلال،(٥/ ٢٧٥٦-٢٧٥٧).

(٢) هو محمد الطاهر بن عاشور، رئيس المفتين المالكيين بتونس وشيخ جامعة الزيتونة، وهو من أعضاء المجمعين العربيين في دمشق والقاهرة، ولد سنة ١٢٩٦ هـ وتوفي سنة ١٣٩٣ هـ. من مصنفاته "مقاصد الشريعة الإسلامية"، "وتفسير التحرير والتنوير"، و"أصول الإنشاء والخطابة"، (الأعلام، ج٦/ ١٧٤).

(٣) السابق،(١٣/ ٣١٤٧).

منهما بالذي يناسب ذكره من الغلبين، فالمراد رحمته في الدنيا[١] ".

لماذا لا يَعتَبِر المشركون بما حدث لأسلافهم :

ذكرت الآيات السبب :

١- ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي : لا يعلمون بواطن الأشياء وعواقبها.

٢- ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ : فهم واقفون مع الأسباب لا يعلمون مسببها المتصرف فيها.

٣- ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ : أي توجهت قلوبهم، وأهواؤهم وإرادتهم إلى الدنيا وشهواتها، وحطامها فعملت لها وسعت، وأقبلت بها وأدبرت، وغفلت عن الآخرة.فلا الجنة تشتاق إليها ولا النار تخافها وتخشاها، ولا المقام بين يدي الله ولقائه يروعها ويزعجها، وهذا علامة الشقاء، وعنوان الغفلة عن الآخرة.

ومن العجب أن هذا القسم من الناس قد بلغت بكثير منهم الفطنة والذكاء في ظاهر الدنيا إلى أمر يحير العقول ويدهش الألباب، وأظهروا من العجائب الذرية والكهربائية والمراكب البرية والبحرية والهوائية، ما فاقوا به وبرزوا، وأعجبوا بعقولهم، ورأوا غيرهم أعجز عاجزاً عما أقدرهم الله عليه.فنظروا إليه بعين الاحتقار والازدراء وهم مع ذلك أبلد الناس في أمر دينهم، وأشدهم غفلة عن آخرتهم، وأقلهم معرفة بالعواقب.قد رآهم أهل البصائر النافذة، في جهلهم يتخبطون، وفي ضلالهم يعمهون، وفي باطلهم يترددون. نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون.

من صور نصر الله لرسله :

١- نصرهم بالحجة والبرهان.

٢- نصرهم بالثبات على المباديء .

٣- نصرهم بالسيف والسنان .

٤- نصرهم بالانتقام ممن قتلهم .

٥- نصرهم بتسخير السنن الكونية.

والآيات التي تشهد لهذه الصور كثيرة :

(١) السابق،(١٣/ ٣٢٢٢).

أولاً : فيما يتعلق بالحجة والبرهان : المناظرة التي جرت بين إبراهيم - عليه السلام - وقومه بمن فيهم أبوه أذر :

﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾[1] .

ثانياً : فيما بالثبات على المبادىء ما ذكره بشأن سحرة فرعون :

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾﴾[2] .

ثالثاً : فيما يتعلق بالقتال : قصة طالوت وجالوت وما ورد من انتصار داود :

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾[3]

رابعاً : نصر الرسل بالانتقام ممن قتلهم، فلم ترد آيات صريحة تدل على هذه الصورة ولكن العلماء عدّوها صورة من صور النصر قال السدي - رحمه الله - : "لم يبعث الله - عز وجل - رسولاً قط إلى قوم فيقتلونه أو قوماً من المؤمنين يدعون إلى الحق فيقتلون فيذهب ذلك القرن حتى يبعث الله تبارك وتعالى لهم من ينصرهم فيطلب بدمائهم ممن فعل ذلك بهم في الدنيا، قال :

---

(١) سورة الأنعام، الآيتان من ٧٤ - ٧٥.

(٢) سورة طه، الآيات من ٧١-٧٤.

(٣) سورة البقرة، الآيات من ٢٥٠ - ٢٥١.

فكانت الأنبياء والمؤمنون يقتلون في الدنيا وهم منصورون فيها "(١).

خامساً : نصر الرسل بتسخير السنن الكونية :

وقد جمع الله المهلكين في آية واحدة :

﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾(٢).

أما ذكرهم على التفصيل فهو كالآتي :

- قال تعالى عن هلاك قوم نوح ونجاة نوح وأتباعه :

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾(٣).

- وقال تعالى عن هلاك قوم هود:

﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ۖ فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾(٤).

- وقال تعالى عن نجاة هود: وأتباعه :

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾﴾(٥).

- وقال تعالى عن هلاك قوم صالح ونجاة صالح وأتباعه:

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (ج٤/ ٩٠).

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٤٠.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٦٤.

(٤) سورة الحاقة، الآيات: ٥- ٨.

(٥) سورة هود، الآية: ٥٨.

جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾[(١)].

- وقال تعالى عن هلاك قوم لوط :

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾[(٢)].

- وقال تعالى عن نجاة لوط وأهله :

﴿قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾﴾[(٣)].

- وقال تعالى عن هلاك قوم شعيب ونجاة شعيب وأتباعه :

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾[(٤)].

- وقال تعالى عن هلاك فرعون وجنده ونجاة موسى وأتباعه :

﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾﴾[(٥)].

إن هذه الآيات تؤكد أن العاقبة للمتقين فمهما طال ليل الظالمين فلابد للفجر من طلوع ولابد لهم من سوء عاقبة.

المبحث الرابع

فرح الشهداء وأرواح المؤمنين

﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا

(١) سورة هود، الآيات: ٦٦- ٦٨.
(٢) سورة هود، الآيات ٨٢- ٨٣.
(٣) سورة الشعراء، الآيات، ١٦٨- ١٧١.
(٤) سورة هود، الآيات ٩٤-٩٥.
(٥) سورة الشعراء، الآيات: ٦٣- ٦٦.

خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾[(١)].

" أي الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله أحياء عند ربهم وهم فرحون بما هم فيه من النعمة والغبطة ومستبشرون بإخوانهم الذين يقتلون بعدهم في سبيل الله أنهم يقدمون عليهم وأنهم لا يخافون مما أمامهم ولا يحزنون على ما تركوه وراءهم".

قال سعيد بن جبير[(٢)]: "لما دخلوا الجنة ورأوا ما فيها من الكرامة للشهداء قالوا: يا ليت إخواننا الذين في الدنيا يعلمون ما عرفناه من الكرامة فإذا شهدوا القتال باشروها بأنفسهم حتى يستشهدوا فيصيبوا ما أصابنا من الخير فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمرهم وما هم فيه من الكرامة وأخبرهم أي ربهم أني قد أنزلت على نبيكم وأخبرته بأمركم وما أنتم فيه فاستبشروا بذلك".

قال القرطبي :

قال السدي: يؤتى الشهيد بكتاب فيه ذكر من يقدم عليه من إخوانه، فيستبشر كما يستبشر أهل الغائب بقدومه في الدنيا.

قال الزجاج : " هم فرحون لأنفسهم بما آتاهم الله من فضله، مستبشرون للمؤمنين بأن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون".

قال سيد قطب[(٣)] -رحمه الله- : " فهم يستقبلون رزق الله بالفرح، لأنهم

---

(١) آل عمران: ١٧٠.

(٢) الإمام الحافظ المقرىء، المفسِّر الشهيد، أبو عبد الله الأسدي الوالبي، مولاهم الكوفي، قرأ القرآن على ابن عباس واجه الحجاج فضرب عنقه، مات عن سبع وخمسين سنة (تهذيب سير أعلام النبلاء، ج١/ ٥٠٥)

(٣) هو سيد بن قطب بن إبراهيم مفكر إسلامي مصري ولد بأسيوط سنة ١٩٠٦ م، تخرج بكلية دار العلوم بالقاهرة، وعمل مدرساً ثم موظفاً فمراقباً بوزارة المعارف المصرية، وأوفد إلى أمريكا لدراسة برامج التعليم الغربية، ولما عاد وقد تغير فكره، طالب ببرامج تتمشى والفكرة الإسلامية وبنى على هذا استقالته وانضم إلى حركة الإخوان المسلمين، وسجن معهم مرات وقد كتب كتابه الشهير " في ظلال القرآن " في السجن ما بين عام ١٩٥٤- ١٩٦٥ م، وقد صدر الحكم بإعدامه عام ١٩٦٦ م، من كتبه: العدالة الاجتماعية في الإسلام "، المستقبل =

يدركون أنه ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ عليهم فهو دليل على رضاه وهم قد قتلوا في سبيل الله، فأي شيء يفرحهم إذاً أكثر من رزقه الذي يتمثل في رضاه ثم هم مشغولون بمن وراءهم من إخوانهم وهم مستبشرون لهم لما علموه من رضا الله عن المؤمنين المجاهدين "[١].

قال ابن عاشور: "وفي هذا دلالة على أن أرواح هؤلاء الشهداء منحت الكشف على ما يسرها من أحوال الذين يهمهم شأنهم في الدنيا. وأن هذا الكشف ثابت لجميع الشهداء في سبيل الله، وقد يكون خاصا بالأحوال السارة لأنها لذة لها. وقد يكون هاما لجميع الأحوال لأن لذة الأرواح تحصل بالمعرفة، على أن الإمام الرازي حصر اللذة الحقيقية في المعارف. وهي لذة الحكماء بمعرفة حقائق الأشياء، ولو كانت سيئة.

وفي الآية بشارة لأصحاب أحد الأحياء بأنهم لا تلحقهم نكبة بعد ذلك اليوم"[٢].

فرح أرواح المؤمنين :

عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إذا حضر المؤمن أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء فيقولون اخرجي راضية مرضيا عنك إلى روح الله وريحان ورب غير غضبان فتخرج كأطيب ريح المسك حتى أنه ليناوله بعضهم بعضا حتى يأتون به باب السماء فيقولون ما أطيب هذه الريح التي جاءتكم من الأرض فيأتون به أرواح المؤمنين فلهم أشد فرحا به من أحدكم بغائبه يقدم عليه فيسألونه ماذا فعل فلان ماذا فعل فلان فيقولون دعوه فإنه كان في غم الدنيا فإذا قال أما أتاكم قالوا ذهب به إلى أمه الهاوية وان الكافر إذا احتضر أتته ملائكة العذاب بمسح فيقولون اخرجي ساخطة مسخوطا عليك إلى عذاب الله فتخرج

= لهذا الدين "، " معالم في الطريق "، الأعلام - قاموس مترجم - لخير الدين الزركلي (دار العلم للملايين - بيروت - لبنان - الطبعة السادسة - ١٩٨٤، (ج٣/ ١٤٧).

(١) في ظلال القرآن، (١/ ٥١٢).

(٢) التحرير والتنوير، (٤/ ٨٥٨).

كأنتن ريح جيفة حتى يأتون به باب الأرض فيقولون ما أنتن هذه الريح حتى يأتون به أرواح الكفار[(١)].

فرح مؤمن آل يّس بدخول الجنة:

قال ابن عاشور: ﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ﴾ السامع يترقب ماذا قال حين غمره الفرح بدخول الجنة. والمعنى: أنه لم يلهه دخول الجنة عن حال قومه، فتمنى أن يعلموا ماذا لقي من ربه ليعلموا فضيلة الإيمان فيؤمنوا وما تمنى هلاكهم ولا الشماتة بهم فكان متسما بكظم الغيظ وبالحلم على أهل الجهل، وذلك لأن عالم الحقائق لا تتوجه فيه النفس إلا إلى الصلاح المحض ولا قيمة للحظوظ الدنية وسفاسف الأمور[(٢)].

قال سيد قطب: " يسدل الستار على الدنيا وما فيها، وعلى القوم وما هم فيه، ويرفعه لنرى هذا الشهيد الذي جهر بكلمة الحق متبعاً صوت الفطرة، وقذف بها في وجوه من يملكون التهديد والتنكيل.نراه في العالم الآخر. ونطلع على ما أدخر الله له من كرامة. تليق بمقام المؤمن الشجاع المخلص الشهيد: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٧﴾ [يس: ٢٦-٢٧].. وتتصل الحياة الدنيا بالحياة الآخرة. ونرى الموت نقلة من عالم الفناء إلى عالم البقاء. وخطوة يخلص بها المؤمن من ضيق الأرض إلى سعة الجنة. ومن تطاول الباطل إلى طمأنينة الحق. ومن تهديد البغي على سلام النعيم. ومن ظلمات الجاهلية إلى نور اليقين.

ونرى الرجل المؤمن. وقد اطلع على ما آتاه الله في الجنة من المغفرة، يذكر قومه طيب القلب رضي النفس، يتمنى لو يراه قومه ويرون ما آتاه ربه من الرضى والكرامة، ليعرفوا الحق، معرفة اليقين ".[(٣)]

---

(١) سنن النسائي (المجتبى)، كتاب: الجنائز، باب: ما يلقى به المؤمن من الكرامة عند خروج... رقم الحديث: ١٨٣٣، (٨/٤).

(٢) التحوير والتنوير (١٥/ ٣٥١٦).

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٥/ ٢٩٦٤).

المبحث الخامس

فرحتا الصائم

عن أبي صالح الزيات أنه سمع أبا هريرة[١] رضي الله عنه يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله : كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به والصيام جنة وإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب فإن سابه أحد أو قاتله فليقل إني امرؤ صائم والذي نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك للصائم فرحتان يفرحهما إذا أفطر فرح وإذا لقي ربه فرح بصومه[٢].

قال الإمام النووي : " قال العلماء : أما فرحته عند لقاء ربه فبما يراه من جزائه ,وتذكر نعمة الله تعالى عليه بتوفيقه لذلك، وأما عند فطره فسببها تمام عبادته وسلامتها من المفسدات، وما يرجوه من ثوابها ".

قال الإمام القرطبي : معناه فرح بزوال جوعه وعطشه حيث أبيح له الفطر وهذا الفرح طبيعي وهو السابق للفهم وقيل إن فرحه بفطره إنما هو من حيث إنه تمام صومه وخاتمة عبادته وتخفيف من ربه ومعونة على مستقبل صومه. قلت : ولا مانع من الحمل على ما هو أعم مما ذكر، ففرح كل أحد بحسبه لاختلاف مقامات الناس في ذلك، فمنهم من يكون فرحه مباحا وهو الطبيعي، ومنهم من يكون مستحبا وهو من يكون سببه شيء مما ذكره .

قوله : (وإذا لقي ربه فرح بصومه).

أي بجزائه وثوابه. وقيل الفرح الذي عند لقاء ربه إما لسروره بربه أو بثواب ربه على الاحتمالين. قلت : والثاني أظهر إذ لا ينحصر الأول في الصوم

---

(١) الإمام الفقيه المجتهد الحافظ، صاحب رسول الله،أبو هريرة الدوسي اليماني، سيد الحفاظ الأثبات، كُنِّيَ بأولاد هرة برّشية قال وجدتها فأخذتها في كمي فكنيت بذلك، مسنده خمسة آلاف وثلاث مائة وأربعة وسبعون حديثاً، رأس في القرآن والسنة والفقه،مات سنة سبع وخمسين.((تهذيب سير أعلام النبلاء،ج١/ ٣٠٧).

(٢) صحيح البخاري،كتاب: الصوم،باب: هل يقول إني صائم إذا شتم،رقم الحديث: ١٨٠٥،(٢/ ٦٧٣).

بل يفرح حينئذ بقبول صومه وترتب الجزاء الوافر عليه.

قال ابن رجب - رحمه الله - : أما فرحة الصائم عند فطره فإن النفوس مجبولة على الميل إلى ما يلائمها من مطعم، ومشرب، ومنكح ؛ فإذا امتنعت من ذلك في وقت من الأوقات، ثم أبيح لها في وقت آخر فرحت بإباحة ما منعت منه، خصوصاً عند اشتداد الحاجة إليه ؛ فإن النفوس تفرح بذلك طبعاً ؛ فإن كان ذلك محبوباً لله كان محبوباً شرعاً.

والصائم عند فطره كذلك ؛ كما أن الله - تعالى - حرم على الصائم في نهار الصيام تناول هذه الشهوات فقد أذن له فيها في ليل الصيام، بل أحب منه المبادرة إلى تناولها من أول الليل وآخره ؛ فأحب عباد الله إليه أعجلهم فطراً، والله وملائكته يصلون على المتسحرين ؛ فالصائم ترك شهواته في النهار تقرباً إلى الله، وطاعة له، وبادر إليها بالليل تقرباً إلى الله وطاعة له، فما تركها إلا بأمر ربه، ولا عاد إليها إلا بأمر ربه، فهو مطيع في الحالين ؛ ولهذا نُهِيَ عن الوصال، فإذا بادر الصائم إلى الفطر تقرباً إلى مولاه، وأكل وشرب وحمد الله ؛ فإنه ترجى له المغفرة، أو بلوغ الرضوان بذلك الى أن قال رحمه الله : " ثم إن ربما استجيب دعاؤه عند فطره ".

وعن ابن ماجة : " إن للصائم عند فطره دعوةً لا تُرد ".

وإن نوى بأكله وشربه تقوية بدنه على القيام والصيام كان مثاباً على ذلك، كما أنه إذا نوى بنومه في الليل والنهار التقوي على العمل كان نومه عبادة.

ومن فهم هذا الذي أشرنا إليه لم يتوقف في معنى فرحه عند فطره ؛ فإن فطره على الوجه المشار إليه من فضل الله ورحمته ويدخل في قوله تعالى : ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ (يونس: ٥٨).

وقال ابن رجب رحمه الله : " وأما فرحه عند لقاء ربه ففيما يجده عند الله من ثواب الصيام مدخراً ؛ فيجده أحوج ما كان إليه كما قال تعالى : ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ (المزمل: ٢٠).

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾ (آل عمران: ٣٠).

قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾﴾ (الزلزلة: ٧).

قال: سفيان بن عيينة[١]: " أن ثواب الصيام لا يأخذه الغرماء في المظالم، بل يدخره الله عنده للصائم حتى يدخله به الجنة "[٢].

المبحث السادس

صور ونماذج من فرح المؤمنين

أولاً: الفرح برخصة الجماع في ليالي رمضان:

عن أبي إسحاق عن البراء رضي الله عنه قال: كان أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم إذا كان الرجل صائما فحضر الإفطار فنام قبل أن يفطر لم يأكل ليلته ولا يومه حتى يمسي وإن قيس بن صرمة الأنصاري كان صائما فلما حضر الإفطار أتى امرأته فقال لها أعندك طعام قالت لا ولكن أنطلق فأطلب لك وكان يومه يعمل فغلبته عيناه فجاءته امرأته فلما رأته قالت خيبة لك فلما انتصف النهار غشي عليه فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ ففرحوا بها فرحا شديدا ونزلت ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾ [البقرة: ١٨٧][٣].

شرح الكرماني على ظاهرها فقال: لما صار الرفث وهو الجماع هنا حلالا بعد أن كان حراما كان الأكل والشرب بطريق الأولى، فلذلك فرحوا بنزولها وفهموا منها الرخصة.

---

(١) ابن أبي عمران ميمون مولى محمد بن مزاحم، أخي الضحاك بن مزاحم، الإمام الكبير، حافظ العصر، شيخ الإسلام، أبو محمد الهذلي الكوفي ثم المكي، مولده بالكوفة في سنة سبع ومئة، مات سنة ثمان وتسعين ومئة، عاش إحدى وتسعين سنة. (تهذيب سير أعلام النبلاء).

(٢) لطائف المعارف، الحافظ ابن رجب الحنبلي، تحقيق عبد الله بن عامر، ص ٢١٥-٢١٧.

(٣) صحيح البخاري، كتاب: الصوم، باب: قول الله: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ﴾، رقم الحديث: ١٨١٦، (٥/ ٦٧٦).

ثانياً : الفرح ببشرى رسول الله " أنت مع من أحببت".

عن ثابت عن أنس رضي الله عنه :أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الساعة فقال متى الساعة قال وماذا أعددت لها قال لا شيء إلا أني أحب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم فقال أنت مع من أحببت قال أنس فما فرحنا بشيء فرحنا بقول النبي صلى الله عليه وسلم أنت مع من أحببت قال أنس فأنا أحب النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم وإن لم أعمل بمثل أعمالهم(١).

جاء في شرح الحديث : " أي ملحق بهم حتى تكون من زمرتهم، وبهذا يندفع إيراد أن منازلهم متفاوتة فكيف تصح المعية ! فيقال إن المعية تحصل بمجرد الاجتماع في شيء ما ولا تلزم في جميع الأشياء ,فإذا اتفق أن الجميع دخلوا الجنة صدقت المعية، وإن تفاوتت الدرجات".

" يعود السياق إلى الترغيب ؛ واستجاشة القلوب ؛ والتلويح للأرواح بالمتاع الحبيب .. متاع الصحبة في الآخرة للنبيين والصديقين والشهداء والصالحين .﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ إنها اللمسة التي تستجيش مشاعر كل قلب، فيه ذرة من خير ؛ وفيه بذرة من صلاح وفيه أثارة من التطلع إلى مقام كريم في صحبة كريمة، في جوار الله الكريم .. وهذه الصحبة لهذا الرهط العلوي . إنما هي من فضل الله. فما يبلغ إنسان بعمله وحده وطاعته وحدها أن ينالها .. إنما هو الفضل الواسع الغامر الفائض العميم".

ويحسن هنا أن نعيش لحظات مع صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يتشوقون إلى صحبته في الآخرة ؛ وفيهم من يبلغ به الوجد ألا يمسك نفسه عند تصور فراقه .. وهو بين ظهرانيهم. فتنزل هذه الآية :فتندي هذا الوجد ؛ وتبل هذه اللهفة . .الوجد النبيل. واللهفة الشفيفة :

---

(١) صحيح البخاري، كتاب: فضائل الصحابة، باب: مناقب عمر بن الخطاب أبي حفص القرشي العدوي، رقم الحديث: ٣٤٨٥،(٣/١٣٤٩).

قال ابن جرير : عن سعيد بن جبير. قال : جاء رجل من الأنصار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو محزون. فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : يا فلان. ما لي أراك محزوناً : فقال : يا نبي الله. شيء فكرت فيه. فقال : ما هو قال : نحن نغدو عليك ونروح. ننظر إلى وجهك، ونجالسك. وغدا ترفع مع النبيين، فلا نصل إليك .. فلم يرد عليه النبي صلى الله عليه وسلم شيئًا. فأتاه جبريل بهذه الآية : ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ فبعث النبي صلى الله عليه وسلم فبشره.

وقد رواه أبو بكر بن مردويه مرفوعاً - بإسناده - عن عائشة(١) - رضي الله عنها - قالت : "جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله. إنك أحب إلي من نفسي، وأحب إلي من أهلي وأحب إلي من ولدي. وإني لأكون في البيت، فأذكرك، فما أصبر حتى آتيك فأنظر إليك .وإذا ذكرت موتي وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين، وإن دخلت الجنة خشيت ألا أراك. فلم يرد عليه النبي صلى الله عليه وسلم حتى نزلت : ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩﴾.

وفي صحيح مسلم : عن ربيعة بن كعب الأسلمي(٢)، أنه قال : كنت أبيت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتيته بوضوئه وحاجته. فقال لي : سل. فقلت يا رسول الله أسألك مرافقتك في الجنة. فقال : أو غير ذلك. قلت : هو ذاك .قال : فأعني على نفسك بكثرة السجود.

وفي صحيح البخاري من طرق متواترة عن جماعة من الصحابة أن رسول

---

(١) هي عائشة بنت الإمام الصديق الأكبر أبي بكر رضي الله عنهم التميمية القرشية أم المؤمنين زوجة النبي - ﷺ - أفقه نساء الأمة على الإطلاق توفيت عام ٥٧ هـ وقيل ٥٨هـ انظر: سير أعلام النبلاء: (٢/ ١٣٥).

(٢) أسلم قديماً وكان من أهل الصفة، وكان يخدم رسول الله ويبيت على بابه لحوائجه، كان يلزم رسول الله ويغزو معه، فلما مات رسول الله خرج فنزل على بريدٍ من المدينة إلى أيام الحرة.(انظر: صفة الصفوة، (ج١/ ٣٠٣)).

الله صلى الله عليه وسلم سئل عن الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم، فقال: المرء مع من أحب .. قال أنس: فما فرح المسلمون فرحهم بهذا الحديث ..

لقد كان الأمر يشغل قلوبهم وأرواحهم .. أمر الصحبة في الآخرة .. وقد ذاقوا طعم الصحبة في الدنيا وإنه لأمر يشغل كل قلب ذاق محبة هذا الرسول الكريم .. وفي الحديث الأخير أمل وطمأنينة ونور "[١].

ثالثاً: الفرح بمقدم رسول الله إلى المدينة:

عن أبي إسحاق قال سمعت البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: أول من قدم علينا مصعب بن عمير وابن أم مكتوم وكانا يقرئان الناس فقدم بلال وسعد وعمار بن ياسر ثم قدم عمر بن الخطاب في عشرين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ثم قدم النبي صلى الله عليه وسلم فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جعل الإماء يقلن قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فما قدم حتى قرأت ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ [الأعلى: ١] في سور من المفصل[٢].

رابعاً: الفرح بمولد عبد الله بن الزبير:

عن أسماء بنت أبي بكر[٣] رضي الله عنهما أنها: حملت بعبد الله بن الزبير بمكة قالت فخرجت وأنا متم فأتيت المدينة فنزلت قباء فولدت بقباء ثم أتيت به رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضعته في حجره ثم دعا بتمرة فمضغها ثم تفل في فيه فكان أول شيء دخل جوفه ريق رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم حنكه بالتمرة ثم دعا له وبرك عليه وكان أول مولود ولد في

(١) الظلال، سيد قطب.

(٢) صحيح البخاري، كتاب: فضائل الصحابة، باب: مقدم النبي وأصحابه المدينة، رقم الحديث: ٣٧١٠، (٣/ ١٤٢٨).

(٣) أسلمت قديماً، و بايعت وشقَّت نطاقها ليلة خرج رسول الله إلى الغار، فجعلت واحداً لسفرة رسول الله والآخر عصاماً لِقُربته فسميت ذات النطاقين، تزوجها الزبير، وكانت صالحة كانت تمرض المرضة فتُعتق كل مملوك لها، توفيت بعد مقتل ابنها عبد الله بليالٍ. (انظر صفة الصفوة، ج١/ ٣٦٩).

الإسلام ففرحوا به فرحا شديدا لأنهم قيل لهم إن اليهود قد سحرتكم فلا يولد لكم[١].

ففرح المسلمون فرحا شديدا ; لأن اليهود كانوا يقولون : سحرناهم حتى لا يولد لهم.

١٢- **فرح أهل الجنة** :عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :إذا صار أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار جيء بالموت حتى يجعل بين الجنة والنار ثم يذبح ثم ينادي مناد يا أهل الجنة لا موت ويا أهل النار لا موت فيزداد أهل الجنة فرحا إلى فرحهم ويزداد أهل النار حزنا إلى حزنهم[٢].

خامساً : فرح عبد الله بن مسعود بموافقة اجتهاده حكم رسول الله :

عن عبد الله بن عتبة بن مسعود: أن عبد الله بن مسعود أتى في رجل بهذا الخبر قال فاختلفوا إليه شهرا أو قال مرات قال فإني أقول فيها إن لها صداقا كصداق نسائها لا وكس ولا شطط وإن لها الميراث وعليها العدة فإن يك صوابا فمن الله وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان والله ورسوله بريئان فقام ناس من أشجع فيهم الجراح وأبو سنان فقالوا يا ابن مسعود نحن نشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضاها فينا في بروع بنت واشق وإن زوجها هلال بن مرة الأشجعي كما قضيت قال ففرح عبد الله بن مسعود فرحا شديدا حين وافق قضاؤه قضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم.

أي بالقضية أو بالفتيا لكون اجتهاده موافقا لحكمه صلى الله عليه وسلم.

سادساً : فرح أبي بن كعب بذكره في الملأ الأعلى:

وقد بكى أُبي بن كعب رضي الله عنه فرحاً بأن ذُكِر في الملأ الأعلى.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب: العقيقة، باب: تسمية المولود غداة يولد لمن لم يعق عنه .، رقم الحديث: ٥١٥٢، (٥/ ٢٠٨١).

(٢) صحيح البخاري، كتاب: الرقاق، باب: صفة الجنة والنار وقال أبو سعيد قال النبي .، رقم الحديث: ٦١٨٢، (٥/ ٢٣٩٧).

قال صلى الله عليه وسلم لأُبيّ رضي الله عنه : إن الله أمرني أن أقرأ عليك قال آلله سماني لك قال الله سماك لي قال فجعل أبي يبكي. رواه البخاري ومسلم.

طفح السرور عليّ حتى إنني　　من عظم ما قد سرني أبكاني

قال الإمام النووي : وفي الحديث فوائد كثيرة.

"١-منها : استحباب قراءة القرآن على الحذاق فيه وأهل العلم به والفضل، وإن كان القارئ أفضل من المقروء عليه.

٢- ومنها : المنقبة الشريفة لأبي بقراءة النبي صلى الله عليه وسلم عليه، ولا يعلم أحد من الناس شاركه في هذا.

٣- ومنها : منقبة أخرى له بذكر الله تعالى له، ونصه عليه في هذه المنزلة الرفيعة.

٤- ومنها : البكاء للسرور والفرح مما يبشر الإنسان به ويعطاه من معالي الأمور "[١]

ثم قال النووي :

"وأما قوله : (آلله سماني لك) فيه : أنه يجوز أن يكون الله تعالى أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقرأ على رجل من أمته ولم ينص على أبي فأراد أبي أن يتحقق هل نص عليه أو قال : على رجل ؟ فيؤخذ منه الاستثبات في المحتملات. واختلفوا في الحكمة في قراءته صلى الله عليه وسلم على أبي، والمختار أن سببها أن تستن الأمة بذلك في القراءة على أهل الإتقان والفضل ويتعلموا آداب القراءة ولا يأنف أحد من ذلك. وقيل :للتنبيه على جلالة أبي وأهليته لأخذ القرآن عنه، وكان يعده صلى الله عليه وسلم رأسا وأماما في إقراء القرآن، وهو أجل ناشرته أو من أجلهم. ويتضمن معجزة لرسول الله صلى الله عليه وسلم. وأما تخصيص هذه السورة فلأنها وجيزة جامعة لقواعد كثيرة من أصول الدين وفروعه ومهماته والإخلاص وتطهير القلوب، وكان الوقت يقتضي الاختصار".

سابعاً : فرح السيدة فاطمة بنت رسول الله عندما بشرها رسول الله ﷺ

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي.

بأنها سيدة نساء أهل الجنة:

ونرى كيف فرحت ابنة النبي صلى الله عليه وسلم فاطمة عندما بشرها أبوها بأنها سيدة نساء الجنة.. حيث تروي عائشة وتصف لنا تلك الفرحة الكبرى التي بدت على فاطمة - رضي الله عنها - فتقول: 'أَقْبَلَتْ فَاطِمَةُ تَمْشِي كَأَنَّ مِشْيَتَهَا مَشْيُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [مَرْحَبًا بِابْنَتِي] ثُمَّ أَجْلَسَهَا عَنْ يَمِينِهِ أَوْ عَنْ شِمَالِهِ ثُمَّ أَسَرَّ إِلَيْهَا حَدِيثًا فَبَكَتْ فَقُلْتُ لَهَا لِمَ تَبْكِينَ ثُمَّ أَسَرَّ إِلَيْهَا حَدِيثًا فَضَحِكَتْ فَقُلْتُ مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ فَرَحًا أَقْرَبَ مِنْ حُزْنٍ فَسَأَلْتُهَا عَمَّا قَالَ فَقَالَتْ مَا كُنْتُ لِأُفْشِيَ سِرَّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى قُبِضَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَأَلْتُهَا فَقَالَتْ أَسَرَّ إِلَيَّ [إِنَّ جِبْرِيلَ كَانَ يُعَارِضُنِي الْقُرْآنَ كُلَّ سَنَةٍ مَرَّةً وَإِنَّهُ عَارَضَنِي الْعَامَ مَرَّتَيْنِ وَلَا أُرَاهُ إِلَّا حَضَرَ أَجَلِي وَإِنَّكِ أَوَّلُ أَهْلِ بَيْتِي لَحَاقًا بِي] فَبَكَيْتُ فَقَالَ: [أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ تَكُونِي سَيِّدَةَ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَوْ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ] فَضَحِكْتُ لِذَلِكَ' رواه البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجة وأحمد.

ثامناً: فرح الصحابي الجليل أبو هريرة، حتى بكى من شدة الفرح عندما اهتدت أمه ودخلت الإسلام:

كيف فرح الصحابي الجليل أبو هريرة، حتى بكى من شدة الفرح عندما اهتدت أمه، ودخلت الإسلام عندما طلب من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يدعو لها بالهداية، يقول أبو هريرة عن تلك اللحظات السعيدة: فَرَجَعْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَتَيْتُهُ وَأَنَا أَبْكِي مِنْ الْفَرَحِ قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَبْشِرْ قَدْ اسْتَجَابَ اللَّهُ دَعْوَتَكَ وَهَدَى أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَقَالَ خَيْرًا، رواه مسلم وأحمد.

تاسعاً: فرح عمر بن الخطاب بطلب الرسول الدعاء له:

عن عمر رضي الله عنه قال: استأذنت النبي صلى الله عليه وسلم في العمرة فأذن لي وقال لا تنسنا يا أخي من دعائك فقال كلمة ما يسرني أن لي بها الدنيا قال شعبة ثم لقيت عاصما بعد بالمدينة فحدثنيه وقال أشركنا

يا أخي في دعائك [(١)].

أي من المدينة في قضاء عمرة كان نذرها في الجاهلية.

(يا أخي) : بصيغة التصغير وهو تصغير تلطف وتعطف .

(من دعائك):

" فيه إظهار الخضوع والمسكنة في مقام العبودية بالتماس الدعاء ممن عرف له الهداية وحث للأمة على الرغبة في دعاء الصالحين وأهل العبادة، وتنبيه لهم على أن لا يخضعوا أنفسهم بالدعاء ولا يشاركوا فيه أقاربهم وأحباءهم لا سيما في مظان الإجابة، وتفخيم لشأن عمر وإرشاد إلى ما يحمي دعاءه من الرد .

(ما يسرني أن لي بها الدنيا) : أي لا يعجبني ولا يفرحني كون جميع الدنيا لي بدلها "[(٢)]

عاشراً : فرح علي بن أبي طالب بتكنية رسول الله له أبا تراب :

عن سهل بن سعد قال : إن كانت أحب أسماء علي رضي الله عنه إليه لأبو تراب وإن كان ليفرح أن يدعى بها وما سماه أبو تراب إلا النبي صلى الله عليه وسلم غاضب يوما فاطمة فخرج فاضطجع إلى الجدار إلى المسجد فجاءه النبي صلى الله عليه وسلم يتبعه فقال هو ذا مضطجع في الجدار فجاءه النبي صلى الله عليه وسلم وامتلأ ظهره ترابا فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يمسح التراب عن ظهره ويقول اجلس يا أبا تراب.

قال الإمام ابن حجر في الفتح :

يستفاد من الحديث :

١- جواز تكنية الشخص بأكثر من كنية، والتلقيب بلفظ الكنية وبما يشتق من حال الشخص.

---

(١) سنن أبي داود، رقم الحديث ١٢٤٠.

(٢) عون المعبود في شرح سنن أبي داود.

٢- وأن اللقب إذا صدر من الكبير في حق الصغير تلقاه بالقبول ولو لم يكن لفظه لفظ مدح.

٣- وأن من حمل ذلك على التنقيص لا يلتفت إليه، وهو كما كان أهل الشام ينتقصون ابن الزبير بزعمهم حيث يقولون له : ابن ذات النطاقين، فيقول " تلك شكاة ظاهر عنك عارها ".

٤- قال ابن بطال : وفيه أن أهل الفضل قد يقع بين الكبير منهم وبين زوجته ما طبع عليه البشر من الغضب، وقد يدعوه ذلك إلى الخروج من بيته ولا يعاب عليه .

قلت - أي ابن حجر - ويحتمل أن يكون سبب خروج علي خشية أن يبدو منه في حالة الغضب ما لا يليق بجناب فاطمة رضي الله عنهما فحسم مادة الكلام بذلك إلى أن تسكن فورة الغضب من كل منهما.

٥- وفيه كرم خلق النبي صلى الله عليه وسلم لأنه توجه نحو علي ليترضاه، ومسح التراب عن ظهره ليبسطه، وداعبه بالكنية المذكورة المأخوذة من حالته، ولم يعاتبه على مغاضبته لابنته مع رفيع منزلتها عنده، فيؤخذ منه استحباب الرفق بالأصهار وترك معاتبتهم إبقاء لمودتهم، لأن العتاب إنما يخشى ممن يخشى منه الحقد لا ممن هو منزه عن ذلك " [(١)].

عن البراء رضي الله عنه قال :لقينا المشركين يومئذ وأجلس النبي صلى الله عليه وسلم جيشا من الرماة وأمر عليهم عبد الله وقال لا تبرحوا إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا فلما لقينا هربوا حتى رأيت النساء يشتددن في الجبل رفعن عن سوقهن قد بدت خلاخلهن فأخذوا يقولون الغنيمة الغنيمة فقال عبد الله عهد إلي النبي صلى الله عليه وسلم أن لا تبرحوا فأبوا فلما أبوا صرف وجوههم فأصيب سبعون قتيلا وأشرف أبو سفيان فقال أفي القوم محمد فقال لا تجيبوه فقال أفي القوم ابن أبي قحافة قال لا تجيبوه فقال أفي القوم ابن الخطاب فقال إن هؤلاء قتلوا فلو كانوا أحياء لأجابوا فلم يملك عمر نفسه فقال كذبت يا عدو الله أبقى الله عليك ما يخزيك قال أبو سفيان اعل هبل فقال النبي صلى الله عليه وسلم

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري.

أجيبوه قالوا ما نقول قال قولوا الله أعلى وأجل قال أبو سفيان لنا العزى ولا عزى لكم فقال النبي صلى الله عليه وسلم أجيبوه قالوا ما نقول قال قولوا الله مولانا ولا مولى لكم قال أبو سفيان يوم بيوم بدر والحرب سجال وتجدون مثلة لم آمر بها ولم تسؤني.

وقع عند الطبري [(١)] من طريق السدي [(٢)] قال : " تفرق الصحابة : فدخل بعضهم المدينة، وانطلق بعضهم فوق الجبل، وثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الناس إلى الله، فرماه ابن قميئة بحجر فكسر أنفه ورباعيته، وشجه في وجهه فأثقله، فتراجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثون رجلا فجعلوا يذبون عنه. فحمله منهم طلحة وسهل بن حنيف، فرمي طلحة بسهم ويبست يده. وقال بعض من فر إلى الجبل : ليت لنا رسولا إلى عبد الله بن أبي يستأمن لنا من أبي سفيان، فقال أنس بن النضر : "يا قوم إن كان محمد قتل فرب محمد لم يقتل. فقاتلوا على ما قاتل عليه ". وقصد رسول الله صلى الله عليه وسلم الجبل فأراد رجل من أصحابه أن يرميه بسهم، فقال له : **أنا رسول الله فلما سمعوا ذلك** فرحوا به واجتمعوا حوله وتراجع الناس.

فوائد من الحديث :

١- منزلة أبي بكر وعمر من النبي صلى الله عليه وسلم وخصوصيتهما به بحيث كان

---

(١) هو أبو جعفر، محمد بن جرير الطبري، الإمام العلامة القاريء، المحدث، المفسر، المؤرخ، الفقيه صاحب التصنيف ولد بآمل سنة أربع وعشرين ومائتين، ألف كتباً لم يصنف مثلها وهي تفسيره جامع البيان، وتهذيب الآثار و"تاريخ الملوك " توفي ببغداد سنة عشر وثلاثمائة، (طبقات المفسرين، للداوودي، (ج٢/ ١١٠ وما بعدها) - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى - ١٤٠٣هـ).

(٢) هو إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة الحجازي الأعور السّديْ أحد موالي قريش، وهو السدي الكبير المفسر ذكره ابن حبان في الثقات ووثقه غير واحد وضعفه آخرون، قال العجلي: ثقة عالم بتفسير القرآن، رواية له، وقد استخدمه الطبري في تفسيره من طريق أسباط بن نصر الهمذاني، وله تفسير، مات سنة سبع وعشرين ومائة. (انظر: سير أعلام النبلاء، ج٥/ ٢٦٤، تاريخ الثقات للحافظ العجلي، تحقيق د. عبد المعطي قلعجي، ص٦٦ - دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٥ هـ، الثقات لابن حبان ج٤/ ٢٠ - مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن - الهند - الطبعة الأولى - ١٣٩٨ هـ).

أعداؤه لا يعرفون بذلك غيرهما، إذ لم يسأل أبو سفيان عن غيرهما.

٢- وأنه ينبغي للمرء أن يتذكر نعمة الله ويعترف بالتقصير عن أداء شكرها .

٣- وفيه شؤم ارتكاب النهي، وأنه يعم ضرره من لم يقع منه، كما قال تعالى : ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥].

٤- وأن من آثر دنياه أضر بأمر آخرته ولم تحصل له دنياه .

٥- واستفيد من هذه الكائنة أخذ الصحابة الحذر من العود إلى مثلها، والمبالغة في الطاعة، والتحرز من العدو الذين كانوا يظهرون أنهم منهم وليسوا منهم، وإلى ذلك أشار سبحانه وتعالى في سورة آل عمران أيضا ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠] - إلى أن قال - ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [آل عمران: ١٤١]، وقال: ﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]

حادي عشر : فرح المهاجرين إلى الحبشة بقول رسول الله لكم أهل السفينة هجرتان :

عن أبي بردة عن أبي موسى(١) رضي الله عنه قال :بلغنا مخرج النبي صلى الله عليه وسلم ونحن باليمن فخرجنا مهاجرين إليه أنا وإخوان لي أنا أصغرهم أحدهما أبو بردة والآخر أبو رهم إما قال بضع وإما قال في ثلاثة وخمسين أو اثنين وخمسين رجلا من قومي فركبنا سفينة فألقتنا سفينتنا إلى النجاشي بالحبشة فوافقنا جعفر بن أبي طالب فأقمنا معه حتى قدمنا جميعا فوافقنا النبي صلى الله عليه وسلم حين افتتح خيبر وكان أناس من الناس يقولون لنا يعني لأهل السفينة سبقناكم بالهجرة ودخلت أسماء بنت عميس(٢) وهي ممن قدم معنا على حفصة زوج النبي صلى الله عليه وسلم زائرة وقد كانت هاجرت إلى النجاشي فيمن هاجر فدخل عمر على حفصة وأسماء عندها

---

(١) أبو موسى الأشعري عبد الله بن قيس بن سليم،أسلم وهاجر إلى الحبشة، ثم قدم مع أهل السفينة، ورسول الله بخيبر،قال له النبي: " لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود، توفي سنة اثنتين وخمسين،و قيل اثنتين وأربعين وقيل أربع وأربعين ودفن بمكة، وقيل: دفن بالثويّة على ميلين بمكة. (انظر: صفوة الصفوة، ابن الجوزي،(ج١/ ٢٤٨)).

(٢) أسلمت قديماً وبايعت وهاجرت إلى الحبشة مع زوجها جعفر بن أبي طالب،ثم قُتل عنها فتزوجها أبو بكر، ومات عنها وتزوجها علي بن أبي طالب.

فقال عمر حين رأى أسماء من هذه قالت أسماء بنت عميس قال عمر الحبشية هذه البحرية هذه قالت أسماء نعم قال سبقناكم بالهجرة فنحن أحق برسول الله صلى الله عليه وسلم منكم فغضبت وقالت كلا والله كنتم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يطعم جائعكم ويعظ جاهلكم وكنا في دار أو في أرض البعداء البغضاء بالحبشة وذلك في الله وفي رسوله صلى الله عليه وسلم وأيم الله لا أطعم طعاما ولا أشرب شرابا حتى أذكر ما قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن كنا نؤذى ونخاف وسأذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم وأسأله والله لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد عليه فلما جاء النبي صلى الله عليه وسلم قالت يا نبي الله إن عمر قال كذا وكذا قال فما قلت له قالت قلت له كذا وكذا قال ليس بأحق بي منكم وله ولأصحابه هجرة واحدة ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان[(١)] قالت فلقد رأيت أبا موسى وأصحاب السفينة يأتوني أرسالا يسألوني عن هذا الحديث ما من الدنيا شيء هم به أفرح ولا أعظم في أنفسهم مما قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم قال أبو بردة قالت أسماء فلقد رأيت أبا موسى وإنه ليستعيد هذا الحديث مني[(٢)].

قال ابن حجر في الفتح:

"و ظاهره تفضيلهم على غيرهم من المهاجرين، لكن لا يلزم منه تفضيلهم على الإطلاق بل من الحيثية المذكورة ".

المبحث السابع

الفرح بموت الظالمين والطغاة

عن أنس رضي الله عنه قال: مروا بجنازة فأثنوا عليها خيرا فقال النبي صلى الله عليه وسلم: وجبت، ثم مروا بأخرى فأثنوا عليها شرا.

فقال: وجبت.

---

(١) الهجرتان: هجرتهم إلى الحبشة. وهجرتهم بعد ذلك إلى رسول الله.

(٢) صحيح البخاري، باب المغازي، غزوة خيبر.

فقال عمر : ما وجبت ؟

قال : هذا أثنيتم عليه خيرا فوجبت له الجنة، وهذا أثنيتم عليه شرا فوجبت له النار.

أنتم شهداء الله في الأرض[١].

وبوب عليه البخاري[٢] في صحيحه : باب ثناء الناس على الميت.

قال النووي : والظاهر أن الذي أثنوا عليه شراً كان من المنافقين.

قال الحافظ ابن حجر في الفتح (٣/ ٢٧٢) :

قلت : يرشد إلى ذلك ما رواه أحمد من حديث أبي قتادة بإسناد صحيح أنه صلى الله عليه وسلم لم يصل على الذي أثنوا عليه شرا وصلى على الآخر.ا.هـ.

الشاهد : أننا شهداء الله في الأرض، فمن مات من الصالحين والعلماء وأهل الفضل نحزن على موته، ونثني عليه خيرا لأننا شهداء الله في الأرض.

ومن مات من الطغاة والظلمة نفرح بموته، ونشهد على أنه ظلم وطغى وتجبر وقتل الأنفس بغير حق، ونثني عليه شرا.

بل إن الدواب والشجر تفرح بموت هؤلاء الطغات.

عن أبي قتادة بن ربعي الأنصاري قال : مُر على النبي صلى الله عليه وسلم بجنازة فقال : مستريح ومستراح منه.

فقالوا : يا رسول ما المستراح وما المستراح منه ؟

قال : إن العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله

---

(١) رواه البخاري، رقم (١٣٦٧).

(٢) محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري يكنى أبا عبد الله، ألهم حفظ الحديث وهو في الكتاب وهو ابن عشر سنين، كان حفظه للحديث حفظ غزير قد شهد له الأكابر، ولد يوم الجمعة بعد صلاة الجمعة لثلاث ليال خلت من شوال سنة أربع وتسعين ومائة، وتوفي ليلة السبت عند صلاة العشاء ليلة الفطر ودفن يوم الفطر بعد صلاة الظهر وذلك لغرة شوال من سنة ست وخمسين ومائتين وقبره بِخَرْتَنْكَ.(صفة الصفوة،(ج٣/ ٩٧٠)).

تعالى، والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب[١].

سجود الشكر عند تجدد النعم واندفاع النقم :

"ذكر محمد بن إسحاق في كتاب "الفتوح " قال : لما جاء المبشر يوم بدر بقتل أبي جهل استحلفه رسول الله - ﷺ - ثلاثة أيمان بالله الذي لا إله إلا هو لقد رأيته قتيلاً، فحلف له، فخر رسول الله - ﷺ - ساجداً.

وذكر سعيد بن منصور :أن أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - سجد حين جاءه قتل مسيلمة.

وذكر الإمام أحمد : أن علياً - رضي الله عنه - سجد حين وجد ذات الثدية في الخوارج[٢].

روى ابن سعد في طبقاته (٦/ ٢٨٠) قال : أخبرنا عبد الحميد بن عبد الرحمن الحِماني، عن أبي حنيفة عن حماد قال : بشرت إبراهيم بموت الحجاج، فسجد، ورأيته يبكي من الفرح.

ولقد كان سلف هذه الأمة ينهون عن الفرح المؤدّي للأشر والبطر :

فقد رأى الفضيل بن عياض[٣] رجلا يضحك، فقال له : ألا أحدثك حديثا حسنا ؟ قال : بلى. قال :

﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦]

---

(١) رواه البخاري، رقم (٦٥١٢).

(٢) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، ابن القيم، تحقيق وتعليق محمد عثمان، دار الريان للتراث، الطبعة الثالثة١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٨م، ص ١٧٣.

(٣) ابن مسعود، الإمام القدوة الثبت، شيخ الإسلام، أبو علي التميمي اليربوعي الخراساني، المجاور بحرم الله، ولد بسمرقند، و نشأ في أبيورد، وارتحل في طلب العلم، كان شاطراً يقطع الطريق بين أبيورد وسرخس، وكان توبته أنه عشق جارية فبينا هو يرتقي الجدران إليها إذ سمع تالياً يتلو ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ قال بلى يارب قد آن، وقال اللهم إني قد تبت وجعلت توبتي مجاورة البيت الحرام. (تهذيب سير أعلام النبلاء، ج٢/ ٧٧٢).

وقيل ليوسف بن أسباط [1]: ما غاية الزهد؟ قال: لا تفرح بما أقبل، ولا تأسف على ما أدبر. قيل: فما غاية التواضع؟ قال: أن تخرج من بيتك فلا تلقى أحداً إلا رأيت أنه خير منك.

مقام المؤمن من الأدب بعد حلول المصيبة وعند نوال الرغيبة.

قوله: ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣] تتميم لقوله: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ فإن المقصود من الكلام أن لا ييأسوا عند حلول المصائب لأن المقصود هو قوله: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ [الحديد: ٢٢]، ثم يعلم أن المسرات كذلك بطريق الاكتفاء فإن من المسرات ما يحصل للمرء من غير ترقب وهو أوقع في المسرة كمل أدبه بطريق المقابلة.

والمعنى: أخبرتكم بذلك لتكونوا حكماء بصراء فتعلموا أن لجميع ذلك أسبابا وعللا، وأن للعالم نظاما مرتبطا بعضه ببعض، وأن الآثار حاصلة عقب مؤثراتها لا محالة، وإن إفضاءها لها بعضه خارج عن طوق البشر ومتجاوز حد معالجته ومحاولته، وفعل الفوات مشعر بأن الفائت قد سعى المفوت عليه في تحصيله ثم غلب على نواله بخروجه عن مكنته، فإذا رسخ ذلك في علم أحد لم يحزن على ما فاته مما لا يستطيع دفعه ولم يغفل عن ترقب زوال ما يسره إذا كان مما يسره، ومن لم يتخلق بخلق الإسلام يتخبط في الجزع إذا أصابه مصاب ويستطار خيلاء وتطاولا إذا ناله أمر محبوب فيخرج عن الحكمة في الحالتين والمقصود من هذا التنبيه على أن المفرحات صائرة إلى زوال وأن زوالها مصيبة. واعلم أن هذا مقام المؤمن من الأدب بعد حلول المصيبة وعند نوال الرغيبة.

وصلة الموصول في ﴿بِمَا آتَاكُمْ﴾ شعرة بأنه نعمة نافعة، وفيه تنبيه على أن مقام المؤمن من الأدب بعد حلول المصيبة وعند انهيال الرغيبة، هو أن

---

(١) الزاهد، من سادات المشايخ، له مواعظ وحكم، نزل الثغور مرابطاً (تهذيب سير أعلام النبلاء، ج٢/ ٨١٤).

لا يحزن على ما فات ولا يبطر بما ناله من خيرات، وليس معنى ذلك أن يترك السعي لنوال الخير واتقاء الشر قائلا: إن الله كتب الأمور كلها في الأزل، لأن هذا إقدام على إفساد ما فطر عليه الناس وأقام عليه نظام العالم. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم للذين قالوا أفلا نتكل اعملوا فكل ميسر لما خلق له.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨] تحذير من الفرح الواقع في سياق تعليل الأخبار بأن كل ما ينال المرء ثابت في كتاب، وفيه بيان للمراد من الفرح أنه الفرح المفرط البالغ بصاحبه إلى الاختيال والفخر[١].

وقال صاحب الظلال: " إن الإنسان يجزع ويستطار وتستخفه الأحداث حين ينفصل بذاته عن هذا الوجود. ويتعامل مع الأحداث كأنها شيء عارض يُصادم وجوده الصغير.فأما حين يستقر في تصوره وشعوره أنه هو الأحداث التي تمر به وتمر بغيره، والأرض كلها .. ذرات في جسم كبير هو هذا الوجود .. وأن هذه الذرات كائنة في موضعها في التصميم الكامل الدقيق.لازم بعضها لبعض. وأن ذلك كله مقدر مرسوم معلوم في علم الله المكنون .. حين يستقر في تصوره وشعوره، فإنه يحس بالراحة والطمأنينة لمواقع القدر كلها على السواء. فلا يأسى على فائت أسى يضعضعه ويزلزله، ولا يفرح بحاصل فرحاً يستخفه ويذهله. ولكن يمضي مع قدر الله في طواعية وفي رضى. رضى العارف المدرك أن ما هو كائن هو الذي ينبغي أن يكون !

وهذه درجة قد لا يستطيعها إلا القليلون. فأما سائر المؤمنين فالمطلوب منهم ألا يخرجهم الألم للضراء ولا الفرح بالسراء عن دائرة الوجه إلى الله، وذكره بهذه وبتلك، والاعتدال في الفرح والحزن.

قال عكرمة - رضي الله عنه - ليس أحد إلا وهو يفرح ويحزن، ولكن اجعلوا الفرح شكراً والحزن صبراً وهذا هو اعتدال الإسلام الميسر للأسوياء "[٢].

---

(١) (١٨/٤٣١٣).

(٢) الظلال، سيد قطب،(٦/ ٣٤٩٥).

الفصل الرابع

فرح المنافقين

لقد هتك الله- سبحانه - أستار المنافقين، وكشف.أسرارهم في القرآن وجلّى لعباده أمورهم ليكونوا منها ومن أهلها على حذر، لكثرتهم وعموم الابتلاء بهم، وشدة فتنتهم على الإسلام وأهله.فإن بلية الإسلام بهم شديدة جداً، لأنهم منسبون إليه، وإلى نصرته، وموالاته، وهم أعداؤه في الحقيقة. يخرجون عداوته في كل قالب يظن الجاهل أنه علم وإصلاح وهو غاية الجهل والإفساد.

فلله كم معقل للإسلام قد هدموه؟

وكم من حصن له قد قلعوا أساسه وخربوه؟

وكم من علم له قد طمسوه؟

وكم ضربوا بمعاول الشُبه في أصوله غراسه ليقلعوها؟

وكم عموا عيون موارده بآرائهم ليدفنوها ويقطعوها؟!

فلا يزال الإسلام وأهله منهم في محنة وبلية، ولا يزال يطيقه من شبههم سرية بعد سرية ويزعمون أنهم مصلحون: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ۝١٢﴾[1].

يتربصون الدوائر بأهل السنة والقرآن. فإن كان لهم فتح من الله، قالوا: ألم نكن معكم؟ واقسموا على ذلك بالله جهد أيمانهم، وإن كان لأعداء الكتاب والسنة من النصرة نصيب قالوا ألم تعلموا أن عقد الإخاء بيننا محكم. وأن النسب بيننا قريب؟

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢.

المبحث الأول

تربص المنافقين بالمؤمنين وفرحهم بما يحل بالمسلمين من مصائب

﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾[١].

ترسم الآية صورة مزرية منفرة، وهم يلقون المسلمين بوجه ويلقون الكفار بوجه، ويمسكون العصا من وسطها، ويتلوون كالديدان والثعابين. في قلوبهم السم. وعلى ألسنتهم الدهان ! ولكنهم بعد ضعاف.

وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾﴾[٢].

" فماذا يتربص المنافقون بالمؤمنين ؟

إنها الحسنى على كل حال، النصر الذي تعلو به كلمة الله، فهو جزاؤهم في هذه الأرض. أو الشهادة في سبيل الحق عُليا الدرجات عند الله.

وماذا يتربص المؤمنون بالمنافقين ؟

إنه عذاب الله يأخذهم، كما أخذ من قبلهم من المكذبين، أو ببطش المؤمنين بهم كما وقع من قبل للمشركين . ﴿فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾. والعاقبة معروفة . .﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٣].

﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾[٤].

قال ابن كثير[٥] : " وهذه الحال دالة على شدة العداوة منهم-أي من

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٤١.
(٢) سورة التوبة، الآية ٥٢.
(٣) في ظلال القرآن، (٣/ ١٦٦٥).
(٤) آل عمران: الآية ١٢٠.
(٥) هو الحافظ الكبير أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء البصري، ثم الدمشقي الشافعي، ولد سنة سبعمائة وقدم دمشق وصاهر الحافظ المزي وصحب ابن تيمية =

المنافقين- للمؤمنين وهو أنه إذا أصاب المؤمنين خصب ونصر وتأييد وكثروا وعز أنصارهم ساء ذلك المنافقين وإن أصاب المسلمين سنة أي جدب أو أديل عليهم الأعداء لما لله تعالى في ذلك من الحكمة - كما جرى يوم أحد - فرح المنافقون بذلك".

قال صاحب الظلال : " .. وإنهم ليفرحون لما يحل بالمسلمين من مصائب وما ينزل بهم من شقة، ذلك بأنهم يأخذون بظواهر الأمور ويحسبون البلاء شراً في كل حال، ويظنون أنهم يحققون لأنفسهم الخير بالتخلف والقعود. وقد خلت قلوبهم من التسليم لله والرضى بقدره، واعتقاد الخير فيه، والمسلم الصادق يبذل جهده ويُقدِم ولا يخشى اعتقاداً بأن ما يصيبه من خير أو شر معقود بإرادة الله وأن الله ناصر له ومعين "(١).

وقال تعالى: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾﴾(٢).

قال ابن كثير: " يعلم تبارك وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بعداوة هؤلاء له لأنه مهما أصابه من حسنة أي فتح ونصر وظفر على الأعداء مما يسره ويسر أصحابه ساءهم ذلك وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل أي قد احترزنا من متابعته من قبل هذا ويتولوا وهم فرحون".

قال ابن عاشور: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ [آل عِمرَان: ١٢٠] زاد الله كشفا لما في صدورهم بقوله: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ أي تصبكم حسنة والمس الإصابة، ولا يختص أحدهما بالخير والآخر

= وتبعه كثير من آرائه وامتحن بسبب ذلك وأوذي، كان كثير الحفظ سهل الاستحضار انتهت رياسة العلم في التاريخ والحديث والتفسير. له التفسير المشهور ثاني كتاب في التفسير بالمأثور بعد تفسير ابن جرير، وله موسوعة التاريخ " البداية والنهاية " مات سنة أربع وسبعين وسبعمائة.(شذرات الذهب، ج٦/ ٢٣٠)، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، للشوكاني، ج١/ ١٥٣ - مكتبة ابن تيمية، القاهرة.

(١) الظلال، (٣/ ١٦٦٤).

(٢) التوبة: ٥٠.

بالشر، فالتعبير بأحدهما في جانب الحسنة، وبالآخر في جانب السيئة، تفنن. والحسنة والسيئة هنا الحادثة أو الحالة التي تحسن عند صاحبها أو تسوء وليس المراد بهما هنا الاصطلاح الشرعي.

قال ابن القيم: فالكبائر كالرياء والعجب والكبر والفخر والخيلاء والقنوط من رحمة الله واليأس من روح الله.

والأمن من مكر الله والفرح والسرور بأذى المسلمين والشماتة بمصيبتهم ومحبة أن تشيع الفاحشة فيهم وحسدهم على ما آتاهم الله من فضله وتمنى زوال ذلك عنهم وتوابع هذه الأمور التي هي أشد تحريما من الزنا وشرب الخمر وغيرهما من الكبائر الظاهرة ولا صلاح للقلب ولا للجسد إلا باجتنابها والتوبة منها وإلا فهو قلب فاسد وإذا فسد القلب فسد البدن[١].

المبحث الثاني

فرح المنافقين - المرائين المتكثرون- بما لم يعطوا

﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾[٢].

"يعني بذلك المرائين المتكثرين بما لم يعطوا".

١- كما جاء في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم "من ادعى دعوى كاذبة ليتكثر بها لم يزده الله إلا قلة".

٢- وفي الصحيحين أيضا "المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور".

٣- وعن أبي سعيد الخدري: أن رجالا من المنافقين في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا إذا خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الغزو تخلفوا عنه وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الغزو اعتذروا إليه وحلفوا وأحبوا أن

(١) كتاب مدارج السالكين، الجزء ١، صفحة ١١٣.
(٢) آل عمران: ١٨٨.

يحمدوا بما لم يفعلوا فنزلت ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ الآية.

٣- عن محمد بن ثابت الأنصاري أن ثابت بن قيس الأنصاري قال: يا رسول الله والله لقد خشيت أن أكون هلكت قال "لم؟" قال نهى الله المرء أن يحب أن يحمد بما لم يفعل وأجدني أحب الحمد ونهى الله عن الخيلاء وأجدني أحب الجمال ونهى الله أن نرفع أصواتنا فوق صوتك وأنا امرؤ جهير الصوت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "أما ترضى أن تعيش حميدا وتقتل شهيدا وتدخل الجنة" فقال: بلى يا رسول الله فعاشَ حميدا وقتل شهيدا يوم مسيلمة الكذاب.

قال سيد قطب - رحمه الله - : " الآية تصور " نموذجاً من الناس يوجد في عهد رسول الله- ﷺ - ويوجد في كل جماعة. نموذج الرجال الذين يعجزون عن احتمال تبعة الرأي، وتكاليف العقيدة، فيقعدون متخلفين عن الكفاح، فإن غُلب المكافحون وهزموا رفعوا هم رؤوسهم وشمخوا بأنوفهم، ونسبوا إلى أنفسهم التعقل والحصافة والأناة ..أما إذا انتصر المكافحون وغنموا، فإن أصحابنا هؤلاء يتظاهرون بأنهم من مؤيدي خطتهم وينتحلون لأنفسهم يداً في النصر، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا !

"إنه نموذج من نماذج البشرية يقتات الجبن والإدعاء "(١).

المبحث الثالث

فرح المنافقين بالتخلف عن الجهاد

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾﴾(٢).

قال ابن كثير : " يقول تعالى ذاماً للمنافقين المتخلفين عن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك وفرحوا بقعودهم بعد خروجه ﴿وَكَرِهُوا

(١) الظلال،(١/ ٥٣٦).
(٢) التوبة: ٨١.

أَن يُجَٰهِدُوا۟﴾ معه ﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وقالوا " أي بعضهم لبعض ﴿لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ﴾ وذلك أن الخروج في غزوة تبوك كان في شدة الحر عند طيب الظلال والثمار فلهذا قالوا ﴿لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ﴾ قال الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿نَارُ جَهَنَّمَ﴾ التي تصيرون إليها بمخالفتكم ﴿أَشَدُّ حَرًّا﴾ مما فررتم منه من الحر بل أشد حرا من النار".

قال الشيخ رشيد رضا(١) : " فرح المخلفون من هؤلاء المنافقين أي : الذين تركهم رسول الله عند خروجه إلى غزوة تبوك، بقعودهم في بيوتهم مخالفين لله تعالى وله، وإنما فرحوا لأنهم لا يؤمنون بما في الخروج معه من الأجر العظيم الذي لا تذكر بجانبه راحة القعود في البيوت شيئاً ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ﴾ أي : قالوا لإخوانهم في النفاق لا تنفروا معه في الحر، نهياً لهم فيه وتثبيطاً للمؤمنين عنه ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ أي : قل أيها الرسول تفنيداً لقولهم وتسفيه لحلومهم : نار جهنم التي أعدها الله تعالى لمن عصاه وعصى رسوله أشد حراً من تلك الأيام، في أوائل فصل الخريف فهو لا يلبث أن يخف ويزول، على كونه مما تحتمه الجسوم، وأما نار جهنم فحرها على شدته دائم فهو يلفح وجوههم، وينضج جلودهم وينزع شواهم وفي هذا أكبر عبرة لمن يتركون الجهاد وغيره من الواجبات إيثاراً للراحة والنعيم، وما يفعله في حال وجوبه إلا المنافقون. ثم قال ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢] أي : لو كانوا يعقلون ذلك ويعتبرو به لما خالفوا وقعدوا ولما فرحوا بقعودهم إذ أجرموا فقعدوا بل لحزنوا واكتأبوا وبكوا وانتحبوا كما فعل المؤمنون الذين أرادوا الخروج والنفقة فعجزوا "(٢)

(١) هو محمد رشيد رضا بن محمد شمس الدين بن منلا على القلموني البغدادي الأصل، الحسيني النسب، صاحب "مجلة المنار " وداعية التجديد والإصلاح وله تفسير اسمه: "تفسير القرآن الحكيم ومشهور باسم " تفسير المنار " وهو غير كامل انتهى مؤلفه إلى الآية ١٠١ من سورة يوسف ولد سنة ١٢٨٢ هـ توفي ١٣٥٣ هـ. انظر: ترجمته في القول المختصر المبين في مناهج المفسرين لمحمد النجدي: ٥٩، وانظر الأعلام للزركلي: ٦/ ١٢٦.

(٢) تفسير المنار، الشيخ محمد رشيد رضا،(١٠/ ٥٦٩- ٥٧٠).

قال صاحب الظلال : " هؤلاء الذين أدركتهم ثقلة الأرض.ثقلة الحرص على الراحة، والشح بالنفقة، وقعد بهم ضعف الهمة، وهزال النخوة، وخواء القلب من الإيمان .. هؤلاء المخلفون - والتعبير يلقي ظلال الإهمال كما لو كانوا متاعاً يخلف أو هملاً يترك - فرحوا بالسلامة والراحة خلاف رسول الله، وتركوا المجاهدين يلاقون الحر والجهد، وحسبوا أن السلامة غاية يحرص عليها الرجال ! .. إن هؤلاء لهم نموذج لضعف الهمة، وطراوة الإرادة، وكثيرون هم الذين يشفقون من المتاعب، وينفرون من الجهد، ويؤثرون الراحة الرخيصة على الكدح الكريم، ويفضلون السلامة الذليلة على الخطر العزيز، وهم يتساقطون إعياء خلف الصفوف الجادة الزاحفة العارفة بتكاليف الدعوات ولكن هذه الصفوف تظل في طريقها المملوء بالعقبات والأشواك لأنها تدرك بفطرتها أن كفاح العقبات والأشواك فطرة في الإنسان وأنه ألذ وأجمل من القعود والتخلف والراحة البليدة التي لا تليق بالرجال(١) .

ضريبة الذل :

" إن للذل ضريبة كما أن للكرامة ضريبة. وإن ضريبة الذل لأفدح في كثير من الأحايين. وإن بعض النفوس الضعيفة ليخيل إليها أن للكرامة ضريبة باهظة لا تطاق، فتختار الذل والمهانة هرباً من هذه التكاليف الثقال، فتعيش عيشة تافهة رخيصة، مفزعة قلقة، تخاف من ظلها، وتفرق من صداها، يحسبون كل صيحة عليهم، ولتجدنهم أحرص الناس على حياة .. هؤلاء الأذلاء يؤدون ضريبة أفدح من تكاليف الكرامة. إنهم يؤدون ضريبة الذل كاملة. يؤدونها من نفوسهم، ويؤدونها من أقدارهم، ويؤدونها من سمعتهم، ويؤدونها من اطمئنانهم، وكثيراً من دمائهم وأموالهم وهم لا يشعرون ومن هؤلاء أولئك الذين ﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [التوبة: ٨٧](٢)

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب،(٣/ ١٦٨٢).
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب،(٣/ ١٦٨٤- ١٦٨٥).

قال ابن عاشور : " وذكر فرحهم دلالة على نفاقهم لأنهم لو كانوا مؤمنين لكان التخلف نكداً عليهم ونغصاً كما وقع للثلاثة الذين خلفوا فتاب الله عليهم. والمقعد هنا مصدر ميمي أي بقعودهم.

و"خلاف" لغة في "خلف". يقال: أقام خلاف الحي بمعنى بعدهم، أي ظعنوا ولم يظعن. ومن نكتة اختيار لفظ خلاف دون خلف أنه يشير إلى أن قعودهم كان مخالفة لإرادة رسول الله حين استنفر الناس كلهم للغزو، ولذلك جعله بعض المفسرين منصوبا على المفعول له، أي بمقعدهم لمخالفة أمر الرسول.

وكراهيتهم الجهاد بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله خصلة أخرى من خصال النفاق لأن الله أمر بذلك في الآية المتقدمة ﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ [التوبة: ٤١] الآية، ولكونها خصلة أخرى جعلت جملتها معطوفة ولم تجعل مقترنة بلام التعليل مع أن فرحهم بالقعود سببه هو الكراهية للجهاد[١].

وقال الشيخ السعدي : " يقول تعالى مبيناً تبجح المنافقين بتخلفهم وعدم مبالاتهم بذلك، الدال على عدم الإيمان واختيار الكفر على الإيمان (فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وهذا قدر زائد على مجرد التخلف، فإن هذا تخلف محرم وزيادة رضا بفعل المعصية وتبجح به. وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وهذا بخلاف المؤمنين، الذين إذا تخلفوا - ولو لعذر -حزنوا على تخلفهم وتأسفوا غاية الأسف، ويحبون أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله لما في قلوبهم من الإيمان ويرجون فضل الله وإحسانه وبره وامتنانه .﴿وَقَالُواْ﴾ أي المنافقون ﴿وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّۗ﴾ [التوبة: ٨١] أي قالوا إن النفير مشقة علينا، بسبب الحر، فقدموا راحة قصيرة منقضية على الراحة الأبدية التامة. وحذروا من الحر الذي تقي منه الظلال، وتذهبه البكور والآصال، على الحر الشديد الذي لا يقادر قدره وهو النار الحاميه"[٢].

---

(١) تفسير التحوير والتنوير، (٨/ ١٨٩٠).

(٢) تفسير الشيخ السعدي، (ص ٣٩٣).

المبحث الرابع

حركة النفاق وأثرها على الإسلام والمسلمين

لقد ورد في القرآن الكريم آيات كثيرة جداً، بل سورة بأكملها تناولت حركة النفاق وسماتها، وأهدافها الاستراتيجية التي تسعى لتحقيقها في إطار المجتمع الإسلامي. ولقد حذر القرآن الكريم من النفاق وصفات المنافقين في أكثر من سبع عشرة سورة مدنية من ثلاثين سورة، واستغرق ذلك قرابة ثلاثمائة وأربعين آية، حتى قال ابن القيم رحمه الله: (**كاد القرآن أن يكون كله في شأنهم**)[١]. إلا أن جُل معاني الآيات التي تناولت حركة النفاق قد حددت أبرز معالمها النفسية والسلوكية في إطار الازدواجية بين الظاهر والباطن، والتناقضية بين الاعتقاد والسلوك، كما قال تعالى محدد ذلك الإطار المعنوي: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١﴾!!

ولقد اتخذت حركة النفاق (في عهد النبي صلى الله عليه وسلم) أسلوباً ماكراً تمثل في إيجاد هوامش واسعة للتحرك بين أمة الإسلام وأعداء الأمة لتشكيل جبهة داخلية معادية للمشروع الإسلامي في إطار دولته وقيم مجتمعه، كما قال تعالى: جنة حماية ووقاية من كشف أجهزة الأمة الإسلامية لدورهم العدائي للإسلام وقيمه ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾[٢] جنة حماية ووقاية من كشف أجهزة الأمة الإسلامية لدورهم العدائي للإسلام وقيمه ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾ زيادة في التلبيس والتدليس لتحقيق مأربهم المشبوهة ﴿وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ !!

أما إذا خلا بعضهم إلى بعض أظهروا حقيقة ما يعتقدون، من الكفر بهذا الدين، ومعاداة قياداته، ومحاربة دولته، والوقوف مع أعداء الأمة والمناوئين لها لتحقيق ذلك... وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن

(١) مدارج السالكين، لابن القيم: (١/ ٣٤٧).

(٢) السيرة النبوية، لابن هشام (٢/ ١٦٦).

مستهزؤون... نسوا أنهم يحاربون الله... الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون... يخادعون الله... والله خادعهم.

المطلب الأول

زعيم حركة النفاق في عصر النبوة

لا يخفى أن بروز حركة النفاق إلى حيز الوجود كان من خلال شخصية زعيمها وليس من خلال فكرة ومنهاج مطروح للنقاش والأخذ والعطاء فيه، وهكذا حركات النفاق على مر التاريخ - دائماً وأبداً - إنها حركات مأجورة تقف بين ثوابت الأمة المسلمة وبين أعدائها، فهي حركة مريضة مرضاً مزمناً في القلب ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ محل الفهم والتدبر، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ !! فمرضهم هذا ليس مرضاً عارضاً، بل هو مرض مزمن أصلي في جبلتهم، قال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أصلاً ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ تبعاً عقوبة لهم !!

بيد أننا لابد من الوقوف على أبعاد شخصية زعيم حركة النفاق الأولى كما صورها القرآن الكريم وقفة تأمل وتحليل، وفك وتركيب لتعدية ظلال هذه الصورة المرضية على من حولنا ممن تحلوا بصفات أولئك القيادات النفاقية، وإسقاط دلالتها العقدية وأبعادها السياسية على حياتنا العملية المعاصرة.

الملف الشخصي لزعيم حركة النفاق الأولى:

الاسم: عبد الله بن أبي بن سلول الخزرجي.

مكان الميلاد: يثرب.

مؤهلاته القيادية: زعيم قبيلة، يجيد فن الخطابة، قوي الشخصية، ذو مال.

مكانته السياسية: روى ابن إسحاق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة: (وسيد أهلها عبد الله بن أبي بن سلول... لا يختلف في شرفه من قومه اثنان، لم تجتمع الأوس والخزرج قبله ولا بعده على رجل من أحد

الفريقين، حتى جاء الإسلام غيره)[١]، بل زاد الأمر على ذلك كما جاء في آخر الرواية : (بأن الأمر وصل بعبد الله في المدينة، إلى درجة دفعت قومه لأن ينظموا له الخرز ليتوجوه، ثم يملكوه عليهم)[٢].

مكانته الاقتصادية : لا يخفى أن مكانة ابن سلول الاجتماعية ولا سيما الاقتصادية المتمثلة في علاقته الوطيدة بأكبر القبائل اليهودية غنىً وصاحبة أضخم أسواق المدينة، وهي قبيلة بني قينقاع[٣]. التي كانت ولا شك تدعم ابن سلول اقتصاديا من خلال سياسة المصالح المشتركة بينهما حتى يتم ترشيحه من قبل الأوس والخزرج ملكا لهم ؛ خاصة لو أخذنا في الاعتبار أن من مقومات الزعامة والقيادة في البيئة العربية الجاهلية آنذاك الثراء والنفوذ الاقتصادي، وكذلك في زماننا !!

ثانيا :تحليل شخصية ابن سلول النفسية:

على ضوء ما ذكر في كتب السيرة النبوية، بقراءة استقرائية لمظآن أخبار ابن سلول، نجد أن هذه الشخصية قد تشكلت سماتها من عدة عوامل وراثية، ومنها ما كان مرده إلى البيئة الاجتماعية، أو البيئة السياسية، أو البيئة الجغرافية. ويمكن أن نتناول سمات شخصيته على هذا النحو التالي:

السمة الأولى : شخصية قيادية:

لا ريب أن الحرب الأخيرة بين الأوس والخزرج يوم بُعاث قد أودت بقتل زعيمي القبيلتين، عمر بن النعمان زعيم الخزرج، وحضير بن سماك زعيم الأوس كما ذكر ذلك ابن الأثير [٤] ؛ بينما كان عبد الله بن أبي ابن سلول يرقب هذه الحرب الاستئصالية عن كثب، ويقرؤها قراءة سياسية بعيون فاحصة تستشرف المستقبل، وتحسب لإمكانية اجتماع القبيلتين على شخصية قيادية

---

(١) المرجع السابق (١/ ١٤٣).
(٢) الكامل في التاريخ، لابن الأثير؛ علي بن أبي الكرم،(١/ ٦٨١).
(٣) الرحيق المختوم، المباركفوري: ١٢٢، وزاد المعاد، لابن القيم:(٢/ ٥٠).
(٤) السيرة النبوية، لابن هشام،(١/ ٤٣١-٤٣٢).

متزنة لم تلطخ يدها بدماء أي من أفراد القبيلتين أيما حساب. وبتلك العقلية القيادية التي تجيد قراءة الواقع، واستشراف المستقبل لم يدخل ابن سلول في هذه الحرب الاستئصالية، وكان له ما قد قدر.

فبعد أن وضعت الحرب أوزارها، وفقدت القبيلتان قياداتهما الحربية والسياسية، ودب الضعف والخوار بين أفراد كل قبيلة لعدم وجود قيادات بديلة تنوب عن تلك القيادات، فأخذت الأنظار تتوجه إلى ذلك الرجل صاحب الشرف والنسب، ذي العقل الحليم والحكيم، الذي نأى بنفسه عن تلك الحروب التي لا تبقي ولا تذر، والذي كان ينادي إلى الاتحاد وعدم الفرقة بين أبناء العمومة، كل ذلك وغيره مما جعلت الأغلبية الساحقة من القبيلتين تتفق على ترشيح ابن سلول، وتقدمه على غيره لقيادة هذا التحالف الجديد، وتسلمه زمام الأمور!!

بل وصل أمر ابن سلول في سلم قيادة المدينة إلى درجة دفعت القبيلتين (لأن ينظموا له الخرز ليتوجوه ثم يملكوه عليهم) !! وذلك لما له من مقومات قيادية نادرة، ومقنعة، حيث كان ابن سلول ذو شخصية مهيبة، من الناحية الشكلية، والجمالية، والبدنية، كما قال تعالى عنهم ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ ومن الناحية العلمية والكلامية حيث أنه كان ذو منطق وفصاحة في كلامه، وله القدرة العالية على إقناع الجمهور من خلال حديثه عند تبنيه لقضايا المجتمع، قال تعالى: ﴿وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾، ولكن لا قيمة لهذه المقومات والخصال إن لم يكن صاحبها صادق فيما يقوله، ويستخدمها فيما يحب الخالق سبحانه وتعالى ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾!!

السمة الثانية: عدم الديمومة القيادية:

لا يخفى أن عدم ثبات هذه (الديمومة) النسبية لفترة زمنية مناسبة في الشخصية القيادية يؤدي إلى أحد أخطر الأمراض المتعلقة بالشخصية، وهي مرض الازدواجية، أو الانشطارية، كما فصل ذلك القرآن الكريم وهو يتحدث عن نفسية المنافقين، فقال عنهم مصورا هذه الانشطارية فيهم: هذا جانب. أما الجانب الآخر !! وقال أيضا عنهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ

﴿ٱلْـَٔاخِرِ﴾، ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ﴾ !! وقال أيضا عنهم : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾، ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾، هذا جانب. أما الجانب الآخر !! وقال أيضا عنهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾، ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ﴾ !! وقال أيضا عنهم : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾، ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾!! وقال عنهم : !! ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾!! ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٥٦] ما قالوا، ﴿وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾!!

ولعل من المناسب ذكر بعض اللقطات التاريخية لبدايات اللقاء والتعارف بين الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وبين أبناء يثرب من الأوس والخزرج ما يساعد على تحليل شخصية ابن سلول الانشطارية بين المؤمنين واليهود، والمزدوجة بين الإيمان والكفران.

ففي اللقاء الأول (بيعة العقبة الأولى) الذي انعقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم وبين مجموعة أهل يثرب التي كان أغلبها أو قل كلها من الخزرج قبيلة ابن سلول، وهم كالآتي : (أسعد بن زرارة، عوف بن الحارث، رافع بن مالك، قطبة بن عامر، عقبة بن عامر، جابر بن عبدالله. وكلهم من الخزرج)[١].

فلقد دار في هذا المؤتمر نقاش هام حول مفاهيم هذا الدين الجديد، ووسائله، وأهدافه، ولم يكن ابن سلول الزعيم القومي لأهل يثرب قد دعي لهذا اللقاء، بل لم يخبر بنتائج وتوصيات ذلك اللقاء لا من قريب ولا من بعيد!!

ثم انعقاد اللقاء الثاني (بيعة العقبة الأولى) بين الرسول القائد صلى الله عليه وسلم وشباب يثرب - رضوان الله عليهم - لمدارسة كيفية الانتقال من

(١) الرحيق المختوم: ص ١٣٣، السيرة النبوية، لابن هشام،(١/ ٤٤٦).

مرحلة الجماعة إلى مرحلة الدولة، ومن مرحلة الدعوة والتأسيس إلى مرحلة الدولة والتمكين، فكان حضور أهل يثرب اثنا عشر رجلا أغلبهم من قبيلة الخزرج [١].

مما لا شك فيه أن ابن سلول لم يدع لهذا اللقاء، ولم يخبر بتوصياته كذلك، وكأنه قد وصلته بعض المعلومات الملونة عن هذا اللقاء إلا أنه لم يلق لها بالا لما يلقه من تأييد شعبي كبير خاصة من القيادات الشبابية داخل قبيلته وحتى من الذين حضروا هذه المؤتمرات المصيرية، فالأمر إذن ليس جد خطير على مصالحه الشخصية!!

ثم انعقد اللقاء الثالث بمنى ولم يدع له الزعيم القومي لأهل يثرب رغم وجوده بمنى كرئيس لبعثة حجاج أهل يثرب كلها (ففي موسم الحج في السنة الثالثة عشر من النبوة، حضر لأداء مناسك الحج بضع وسبعون نفسا من المسلمين من أهل يثرب، جاؤوا حجاج قومهم من المشركين، قد تساءل هؤلاء المسلمون فيما بينهم - وهم لم يزالوا في يثرب أو كانوا في الطريق - حتى متى نترك رسول الله صلى الله عليه وسلم يطوف ويطرد في جبال مكة ويخاف؟!)[٢].

إذن هذا المؤتمر ليس كسابقيه من المؤتمرات، فهو يدور على مناقشة الأسس التمهيدية لقيام الدولة الإسلامية على أراضى أهل يثرب، ومن ثم كيفية تطبيق الوسائل العملية لانتقال قيادة الدولة الإسلامية إلى مقرها الجديد لمباشرة أعمالها السيادية، وبسط نفوذها السياسية، كما جاء ذلك على لسان أحد قيادات أهل يثرب حيث قال لهم - العباس بن عبادة -: (هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟ قالوا: نعم، قال: إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس...)[٣].

---

(١) أصول علم النفس العام، للدكتور: عبد المجيد محمد الهاشمي: ٢٨٣.
(٢) المغازي النبوية، لابن شهاب محمد بن مسلم الزهري،(١٨٠-١٨١)، وصحيح البخاري،(٢/ ٩٢٤)، وصحيح مسلم،(٢/ ٩).
(٣) الرحيق المختوم،(٢٢٧-٢٢٩).

وبعد أن تمت البيعة وأشرف اللقاء على نهايته طلب الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم انتخاب قيادات عريضة تمثل كافة قطاعات الشعب اليثربي وذلك بمعزل عن القيادة الجاهلية المتمثلة في ابن سلول وغيره سحبا للبساط من تحت أقدامهم، وبالفعل قد تم اختيار اثني عشر زعيما من أهل يثرب يشكلون الصف الأول القيادي لأهل يثرب قاطبة.إلا أن هنالك معلومات قد تسربت إلى القيادة الجاهلية مفادها : أنه قد تم تشكيل قيادات إسلامية جديدة بديلة عن القيادات الجاهلية القديمة، والسعي لإقامة دولة إسلامية على أراضي يثرب، فلما قرع هذا الخبر آذان قريش وقعت فيهم ضجة أثارت القلاقل والأحزان... فما أن أصبحوا حتى توجه وفد كبير من زعماء مكة وأكابر مجرميها إلى مخيم أهل يثرب، ليقدم احتجاجه الشديد على ذلك المؤتمر السري الخطير !!

فقال الوفد المكي : (يا معشر الخزرج، أنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا، وتبايعونه على حربنا... فقام ابن سلول، فجعل يقول : هذا باطل، وما كان هذا، وما كان قومي ليفتاتوا على بمثل هذا، لو كنت بيثرب ما صنع قومي هذا حتى يؤامروني) !!

من هنا. تأكدت المعلومات الملونة السابقة في ذهن ابن سلول الزعيم القومي كخطوط عريضة دون تفصيل عن ماهية أوراق العمل التي نوقشت خلال جلسات المؤتمر التأسيسي، لذلك فقد أخذ في اعتباره - إن صدقت هذه المعلومات - خطورة هذه المؤتمرات ومآلاتها على مكانته القيادية والاجتماعية والاقتصادية في الفترة القادمة، فلابد إذن من أخذ الحذر والاحتياط من تحركات القيادة الشبابية المشبوهة، والاستعداد لمواجهة أهداف وتوصيات تلك المؤتمرات السرية بعقلية احتوائية تحفظ المصالح الاقتصادية، وترعى المكانة السياسية والاجتماعية.

فعندما انتقلت قيادة الدولة الإسلامية إلى المدينة المنورة مقر الدولة الإسلامية الجديدة، شعر - ابن سلول - بأن القيادات الشبابية اليثربية قد اختارت قيادة بديلة عنه وتجاوزته، وأن مشروعه السلطوي هو الآخر قد تجاوزه

الزمن وأصبح جزءا من الماضي والتاريخ فأصيب، والحالة هذه بمرض حاد في الشخصية يسمى في علم النفس الشخصي بمرض (الازدواجية، أو الانشطارية)[١].

ويعبر عنه في الشريعة الإسلامية بمرض النفاق حيث تكون شخصية هذا المريض مركبة من أمرين مزدوجين غير قابلين للتعايش إلا في شخصية قلبها مريض، كما قال تعالى عنهم : ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾!!

المطلب الثاني
ظهور حركة النفاق

لا يخفى أن بعد وصول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم واكتمال حضور كل القيادات الإسلامية لمقر الدولة الإسلامية الجديد، وتزايد رابطة الإيمان فيما بين الأنصار (الأوس والخزرج) والمهاجرين رضوان الله عليهم، وانتشار الإسلام في كل دور أهل المدينة، وظهور علامات القوة المادية والمعنوية على سواعد هذه الدولة الفتية، رأت القيادة الانشطارية (ابن سلول) أن تركب موجة التدين، وأن تظهر علامات الالتزام بالإسلام في إطاره الاعتقادي، والاجتماعي، والسياسي، وتخفي وراء ذلك الكفر به ونصب العداء له، وذلك دون أن تظهر على السطح كحركة مستقلة مناوئة للمشروع الإسلامي الجديد.

فقد سلكت حركة النفاق في أول أمرها أسلوب العداء الفردي للقيادة الإسلامية، كقول ابن سلول للرسول صلى الله عليه وسلم عندما غشى مجلسا على دابة وبه بعض الصحابة وابن سلول فقال زعيم المنافقين وقتئذ : (لا تغبروا علينا !!... ثم ركب النبي صلى الله عليه وسلم دابته حتى دخل على سعد بن عبادة فقال : أي سعد، ألم تسمع ما يقول أبو حباب (ابن سلول) ؟ قال كذا وكذا... قال سعد : اعف عنه يا رسول الله واصفح، فو الله لقد أعطاك الله الذي أعطاك ولقد اصطلح لأهل هذه البحيرة (المدينة) أن يتوجوه، يعني يملكوه

(١) صحيح البخاري، (١/ ٤٩٩، ٢/ ٧٢٩)، والسيرة النبوية، لابن هشام (٢/ ٢٩٠).

فيعصبوه بالعصابة، فلما رد الله تبارك وتعالى ذلك بالحق الذي أعطاكه شرق بذلك، فلذلك فعل بك ما رأيت، فعفا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم)[١].

وهذه الحادثة كما تقرر كتب التاريخ والمغازي أنها قد وقعت قبل معركة بدر، وذلك في بداية الهجرة إلى دار الإسلام.

دور المنافقين في غزوة أُحد :

في أخطر لحظات الدعوة الإسلامية وأدق المراحل التي واجهت فيها أعداءها كان حزب النفاق بالمرصاد لهذه الدعوة ففي غزوة أُحد نقلت الأجهزة الأمنية الإسلامية معلومات مفادها أن جيش مكة على مقربة من حدود الدولة الإسلامية الوليدة (حينئذ عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسا استشاريا عسكريا أعلى، تبادل فيه الرأي لاختيار الموقف، فأشار فريق من الناس عليه بعدم الخروج من حصون المدينة، وأن يتحصنوا بها، فوافق على هذا الرأي عبد الله بن أبي بن سلول - زعيم المنافقين - وحاول أن يتظاهر بأنه حريص على سلامة الدولة الإسلامية، وأنه رجل جاد في توجهه هذا !! وقد بادر جماعة من فضلاء الصحابة ممن فاته الخروج يوم بدر، فأشاروا على النبي صلى الله عليه وسلم بالخروج، ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رأيه أمام رأي الأغلبية، واستقر الأمر على الخروج من المدينة، واللقاء في الميدان السافر).

وقبل طلوع الفجر بقليل من يوم المعركة تمرد ابن سلول في حركة نفاق تعدادها قرابة ثلث العسكر أي ثلاثمائة مقاتل، قائلا: ما ندري علام نقتل أنفسنا ؟!ومتظاهرا بالاحتجاج بأن الرسول صلى الله عليه وسلم ترك رأيه وأطاع غيره!![٢]

ولكن في حقيقة الأمر ليس كذلك، بل لمرض في نفسه المصابة بالازدواجية، وحب الزعامة، ورغبته في أن يخالف الجميع من باب خالف

---

(١) الرحيق المختوم، للمباركفوري: ض٣٠٢.

(٢) الرحيق المختوم، للمباركفوري: ص ٣٠٢.

تعرف، وحسدهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وكرهه للمهاجرين رضوان الله عليهم. ومنذ هذه الحادثة برزت حركة النفاق إلى حيز الوجود، ككيان سياسي، وحاولت أن تظهر لها قيادات جديدة، حتى توهم الرأي العام أنها كل شي، وصاحبة الحق والرأي السديد، وأسماء قيادات حركة النفاق هي التي كانت عند حذيفة بن اليمان(١) - رضي الله عنه - صاحب سر رسول الله، ومنذ ذلك التمرد وحركة النفاق تكرر هذا التمرد الجماعي المناوئ، وبصورة علنية للمشروع الإسلامي !!

غزوة بني المصطلق :

لقد قامت حركة النفاق بأخطر محاولة استهدفت وحدة الجماعة الإسلامية، وكادت تقودها إلى حرب استنزافية لا يعلم حدودها إلا الله، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الفراغ من الغزو مقيما على المريسيع، ووردت واردة الناس، ومع عمر بن الخطاب رضي الله عنه أجير يقال له جهجاه الغفاري، فازدحم هو وسنان بن وبر الجهني على الماء، فاقتتلا، فصرخ الجهني !! وبلغ ذلك ابن سلول زعيم حركة النفاق فغضب وقال في رهط من قومه : أو قد فعلوها، قد نافرونا، وكاثرونا في بلادنا، والله ما نحن وهم إلا كما قال : الأول :سمن كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل.ثم أقبل على من حضره فقال لهم : هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم(٢).

وتوالت تلك المواقف من حركة النفاق التي كانت ملئت بالحقد والحسد، على قيادة الإسلام والإسلام ذاته، فقد أثارت القلق والاضطراب،

---

(١) يكنى أبا عبد الله. وأم اليمان: حسيل بن جابر بن ربيعة بن عمرو إبن جزوة وقيل حزوة هو اليمان، بعثه عمر بن الخطاب أميراً على المدائن،مات بعد مقتل عثمان بعدة أشهر.(انظر صفوة الصفوة،(ج١/ ٢٧١)).

(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير،(٢/ ٢٨٨).

وإلقاء الرعب والدهشة في قلوب المؤمنين يوم الأحزاب كما صور ذلك المولى عز وجل بقوله : ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾.

وقبل ذلك موقفهم من يهود بني قينقاع الذين نقضوا عهدهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فحاصرهم أشد الحصار، ودام الحصار خمس عشرة ليلة، وقذف الله في قلوبهم الرعب، فنزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم في رقابهم وأموالهم ونسائهم وذريتهم، فأمر بهم فكتفوا.

وحينئذ قامت حركة النفاق بقيادة عبد الله بن أبي بن سلول بدورها المشبوه والمأجور، فألح على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصدر عنهم عفواً، فقال : يا محمد !! أحسن في موالي، فأبطأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكرر ابن أبي مقالته، فأعرض عنه، فأدخل يده في جيب درعه، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: أرسلني، وغضب حتى رأوا لوجهه ظللا، ثم قال : ويحك، أرسلني!!

ولكن هذا الخبيث مضى على إصراره، وقال : لا والله لا أرسلك حتى تحسن في موالي، أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعوني من الأحمر والأسود، تحصدهم في غداة واحدة؟ إني والله امرؤ أخشى الدوائر !! قال تعالى : ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.(المائدة : ٥٢)

المطلب الثالث

مؤامرات المنافقين للطعن في الإسلام

اتخذت حركة النفاق وسائل عديدة لتحقيق أهدافها الخبيثة في واقع المسلمين، وقد ذُكر في القرآن الكريم جزء من هذه الوسائل التخريبية التي اتخذتها حركة النفاق ضد المشروع الإسلامي الجديد، وكيف احتوت قيادة الأمة الإسلامية هذه الحركة بطريقة احتوائية بارعة ؛ استطاعت من خلالها أن

تحافظ على وحدة الأمة، وتماسك الجبهة الداخلية، وتذويب قيادات حركة النفاق من خلال حركة المجتمع الإسلامي المتحرك والمتجدد.

وسأكتفي بذكر موقفين للمنافقين ضد الإسلام هما :

١- حادثة الإفك.

٢- مسجد الضرار.

أولاً : حادثة الإفك:

والحادثة وردة في سورة النور :

قال تعالى :

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَاءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾(١).

وخلاصة الحادثة : أن أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - كانت مع رسول الله - ﷺ - في غزوة بني المصطلق - كعادته في اصطحاب إحد نسائه في غزواته - وفي العودة نزل الجيش منزلاً فذهبت عائشة - رضي الله عنها - لحاجتها وتأخرت بسبب فقدانها لعقد لها فجلست تبحث عنه، وعندما عادت وجدت الجيش قد رحل بهودجها المحمول ظناً منهم أنها بداخله لخفة وزنها.

---

(١) سورة النور، الآيات من ١١ - ٢٠.

فجلست في مكانها أملاً أن يفتقدوها فيرسلوا في إثرها، فنامت ولم تستيقظ إلا على استرجاع صفوان بن المعطل [١] الذي كان متأخراً عن الجيش فأناخ لها راحلته فركبت ثم سار بها وما كلمها بكلمة واحدة، ووصلا - بطبيعة الحال - متأخرين عن الجيش فلما رأى الناس ذلك تكلم كل على شاكلته واستغل الموقف عدو الله عبد الله بن سلول قائلاً: " والله ما نجت منه ولا نجا منها " وقال: امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت، ثم جاء يقودها ! " وأفاض أهل الإفك في الحديث ورسول الله - ﷺ - ساكت لا يتكلم. ووافق الحادثة مرض عائشة -رضي الله عنها. وكانت ترى جفاء من رسول الله - ﷺ - لم تعهده، لذلك استأذنته أن تمرض في بيت أبيها، فوافق. وظلت مريضة قرابة شهر كامل وأهل الإفك يخوضون ورسول الله - ﷺ - يتألم مما يقولون وكذلك أبو بكر - رضي الله عنه -، كل هذا وعائشة المريضة - رضي الله عنها - لا تدري ما يجري حولها. وبعد أن عرفت زاد مرضها وكبر همها وبكت حتى تقلص دمعها. وأخذ رسول الله يستشير بعض أصحابه في الأمر، وبعدها صعد المنبر وقال: " يا معشر المسلمين من يعذرني [٢] من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي؟ فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً لقد ذكروا لي رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلا معي فقال سعد بن معاذ [٣]- سيد الأوس - : أنا أعذرك فيه، إن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك، فقال سعد بن عبادة [٤]- سيد

---

(١) هو صفوان بن المعطل بن ربيعة، سكن في المدينة وشهد الخندق والمشاهد ويكنى أبا عمرو، اتهمه المنافقون في حادثة الإفك المشهورة، عاش إلى خلافة معاوية وغزا الروم ومات بها سنة ثمان وخمسين وقيل ستين. (الإصابة، ج٣/ ٢٥٠).

(٢) أي: من ينصرني عليه وينتقم منه.

(٣) هو سعد بن معاذ بن النعمان من بني عبد الأشهل الأنصاري سيد الأوس ويكنى أبا عمرو أسلم لإسلامه معظم بني عبد الأشهل، شهد بدراً وما بعدها، وأصيب بسهم يوم الخندق، مات على إثره بعد شهر وذلك في السنة الخامسة واهتز عرش الرحمن لموته. (الإصابة، (ج٣/ ٨٧).

(٤) هو سعد بن عبادة بن دليم بن حارثة الأنصاري سيد الخزرج، يكنى أبا ثابت وأبا قيس، شهد العقبة، وأحد النقباء، كان مشهوراً بالجود فقد كان يُعشي كل ليلة ثمانين من أهل الصفة. خرج إلى الشام فمات بحوران سنة خمس عشرة (الإصابة، ج٣/ ٨٠).

الخزرج - وقد أخذته الحمية - كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله فرد عليه أسيد بن حضير (١) - ابن عم سعد بن معاذ - كذبت لنقتلنّه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين. فثار الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا، ورسول الله - ﷺ - قائم على المنبر فلم يزل رسول الله - ﷺ - يخفّضهم حتى سكتوا، وبعدها ذهب إلى بيت أبي بكر وتحدث مع عائشة مع مسمع من أبويها قائلاً : " أما بعد يا عائشة فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تاب الله عليه ". فلما قضى رسول الله - ﷺ - كلامه طلبت من أبويها أن يجيبا رسول الله - ﷺ - فاعتذرا قائلين : ما ندري ما نقول لرسول الله. عندها تحولت عنهم متمثلة قول يعقوب عليه السلام : ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾(٢) و ما هي لحظات حتى غُشي رسول الله فنزل عليه الوحي ببراءة عائشة - رضي الله عنها (٣).

وتعتبر حادثة الإفك من أقسى المحن التي تعرض لها على الإطلاق. فلقد حاول المنافقون بقيادة ابن سلول أن يغتالوا الإسلام وأن يقتلعوه من جذوره باستغلال هذا الحدث.

قال سيد قطب" : لقد عرف عبد الله بن أبي ابن سلول - رأس النفاق وحامل لواء الكيد للإسلام - كيف يختار مقتلاً، لولا أن الله كان من ورائه محيطاً، وكان لدينه حافظاً، ولرسوله عاصماً، وللجماعة المسلمة راعياً ثم قال : " لقد كانت معركة خاضها رسول الله - ﷺ - وخاضتها الجماعة المسلمة يومذاك وخاضها الإسلام. معركة ضخمة لعلها أضخم المعارك التي خاضها رسول الله - ﷺ - وخرج منها منتصراً كاظماً لآلامه الكبار ..والآلام

(١) هو أسيد بن حضير بن سماك بن بني عبد الأشهل الأنصاري، يكنى أبا يحيى، أحد السابقين إلى الإسلام على يد مصعب بن عمير، كان أحد النقباء ليلة العقبة وهو ممن ثبت يوم احد مات سنة عشرين، (الإصابة، ج١/ ٤٨).

(٢) سورة يوسف، آية ١٨.

(٣) القصة بأكملها في صحيح البخاري، كتاب التفسير، سورة النور، (ج٤/ ١٧٧٤).

التي تناوشه لعلها أعظم الآلام التي مرت به في حياته. والخطر على الإسلام من تلك الفرية من أشد الأخطار التي تعرض لها في تاريخه [١].

أهداف المنافقين من هذه المكيدة العظيمة [٢]:

١- إشاعة المنكر والفاحشة في الذين آمنوا.
٢- إثارة الفتنة وجر بعض الصالحين إليها.
٣- إيقاع المسلمين في حيرة وبلبلة واضطراب.
٤- الطعن في رسالة رسول الله - ﷺ- بالطعن في عرضه !
٥- تمزيق الصف المسلم المتلاحم الذي أغاظ المنافقين.
٦- انتزاع ثقة الناس بعضهم ببعض بسبب زوال ثقة الناس عن بيت النبوة أطهر بيوت المسلمين.

ولقد ظفر المنافقون ببعض النتائج التي كانوا يهدفون إليها مثل[٣] :

١- وقوع بعض الصحابة في الفتنة كمسطح بن أثاثة[٤]، وحمنة بنت جحش [٥]، وحسان بن ثابت [٦].
٢- وقوع معظم الصحابة - رضوان الله عليهم - في حيرة وبلبلة لكن الله ربط على قلوبهم.

---

(١) في ظلال القرآن، (٤/ ٢٥٠١).
(٢) انظر معالم الدعوة في القصص القرآني، (رسالة دكتوراه) لعبد الوهاب بن لطف الديلمي ج٢/ ٨٢١(دار المجتمع، السعودية - جدة - الطبعة الأولى - ١٤٠٦ هـ).
(٣) المصدر السابق.
(٤) هو مسطح بن أثاثة بن عباد بن عبد المطلب، كان اسمه عوناً وأما مسطح فهو لقبه، أمه بنت خال أبي بكر، كان أبو بكر يُمّونه لقرابته منه، فلما شارك في الإفك قطع عنه النفقة وبعد نزول: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ﴾ [النور: ٢٢] عاد عليه بالإنفاق، مات سنة أربع وثلاثين في خلافة عثمان، (الإصابة، (ج٦/ ٨٨)).
(٥) حمنة بنت جحش الأسدية أخت أم المؤمنين زينب، كانت زوج مصعب بن عمير، فلما قُتل يوم أحد تزوجها طلحة بن عبد الله، فولدت له محمداً وعمران. أمها هي أميمة بنت عبد المكلب. كانت حمنة من المبايعات وشهدت أحداً فكانت تسقي العطشى وتحمل الجرحى وتداويهم، (الإصابة، ج٢/ ٨).
(٦) هو حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام من بني النجار الأنصاري الخزرجي، شاعر رسول الله يكنى أبا الوليد، اختلف في سنة فاته، فقيل سنة أربعين، وخمسين، وأربع وخمسين وعاش مائة وعشرين سنة، (الإصابة ج٢/ ٨).

٣- تنازع الحيان الأوس والخزرج بين يدي رسول الله حتى كادوا أن يقتتلوا.

و بالرغم من أن الحادثة من أعظم المحن التي مرت برسول الله إلا أن الله سماها خيراً.

ولقد حاول بعض المفسرين استلهام وجه الخيرية في هذه الحداثة :

ذكر الرازي - رحمه الله - وجوه الخيرية في الحادثة قائلاً :

إحداها : إنهم صبروا على ذلك الغَمّ طلباً لمرضاة الله تعالى فاستوجبوا به الثواب وهذه طريقة المؤمنين عند وقوع الظلم.

ثانيها : إنه لولا إظهارهم للإفك كان يجوز أن تبقى التهمة كامنة في صدور البعض، وعند الإظهار انكشف كذب القوم على مر الدهر.

ثالثها : إنه صار خيراً لهم لما فيه من شرفهم وبيان فضلهم من حيث نزلت ثمان عشرة آية كلها ببراءة عائشة - رضي الله عنها - وشهد الله تعالى بكذب القاذفين ونسبهم إلى الإفك وأوجب عليهم اللعن والذم وهذا غاية الشرف والفضل[١].

ومن أوجه الخير ما ذكره ابن القيم من حكم الحادثة بقوله :

" .. فإن أحب أن يظهر منزلة رسوله وأهل بيته عنده، وكرامتهم عليه، وأن يخرج رسول الله عن هذه القضية، ويتولى هو بنفسه الدفاع والمنافحة عنه، والرد على أعدائه، وذمهم وعيبهم بأمر لا يكون له فيه عمل، ولا ينسب إليه، بل يكون هو وحده المتولي لذلك، المدافع عن رسوله وأهل بيته ".

وكشف سيد قطب - رحمه الله- عن بعض أوجه الخير كذلك قائلاً :

١- فهو يكشف عن الكائدين للإسلام في شخص رسول الله -ﷺ- وأهل بيته.

٢- وهو يكشف للجماعة المسلمة عن ضرورة تحريم القذف وأخذ القاذفين بالحد الذي فرضه الله، ويبين مدى الأخطار التي تحيق بالجماعة لو أطلقت فيها الألسنة تقذف المحصنات الغافلات المؤمنات. فهي عندئذ لا تقف عند حد. إنما تمضي صعداً إلى أشرف المقامات، وتتطاول على أعلى الهامات، وتُعدم

---

(١) التفسير الكبير بتصرف،(٢٣/ ١٧٣).

الجماعة كل وقاية وكل تحرّج وكل حياء.

٣- وهو خير لأنه يرسم للجماعة المسلمة **المنهج القويم في مواجهة مثل هذا الأمر العظيم**[(١)] **ويتكون المنهج من خطوتين :**

الأولى : عرض الأمر على القلب واستفتاء الضمير وحسن الظن : قال تعالى :

﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾[(٢)].

الثانية : التثبت وطلب الدليل والبرهان قال تعالى :

﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾﴾[(٣)].

ثانياً : مسجد الضرار :

من خطط المنافقين للنيل من هذا الدين : التمسح بمسوح الصالحين، ورفع شعار المصلحين المشفقين على الناس وعلى مصالحهم. فباسم هذا الشعار وتحت هذه اللافتة تتم محاربة الإسلام أو تشويهه وتمييعه. ولقد كان مسجد الضرار مثالاً حياً لهدم الإسلام باسم الإسلام وتحت ستار الشفقة والعطف على المرضى وأصحاب العلل.

فقد ذكر المفسرون أن المنافقين بنو مسجداً بجوار مسجد قباء وذلك قبل خروج الرسول - ﷺ- إلى غزوة تبوك، ثم أرسلوا إليه وهو يتجهز للخروج قائلين : يا رسول الله إنا قد بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة، والليلة الشاتية وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه وتدعو لنا بالبركة.فقال ﷺ : إني على جناح سفر، وإذا قدمنا إن شاء الله صلينا فيها.فلما قفل راجعاً إلى المدينة ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم، نزل جبريل - عليه السلام -

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب،(ج٤/ ٢٥٠٠).
(٢) سورة النور الآية: ١٢.
(٣) سورة النور الآية: ١٣.

بخبر مسجد الضرار قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾﴾(١).

ونُهي رسول الله عن الصلاة في ذلك المسجد :

﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾(٢).

فأرسل رسول الله جماعة من الصحابة إلى هذا المسجد وأمرهم أن يهدموه ففعلوا، وأمر أن يُتخذ مكانه كنّاسة يلقى فيها الجيف والقمامة (٣).

وكشف الله - عز وجل - عن نواياهم الخبيثة حيث وصف المسجد بأربع صفات :

١- " **ضراراً** " والمراد أنهم بنوا مسجدهم لمضارة المؤمنين أي محاول إيقاع الضرر بهم وهم أهل مسجد قباء - المسجد الذي بناه لهم رسول الله - عند مقدمة من مكة مهاجراً وقبل وصوله إلى المدينة - إذ بنوه بجواره مضادة لهم في الاجتماع للصلاة فيه.

٢- " **وكفراً**" : أي للكفر أو تقوية للكفر، وتسهيل أعماله من فعل وترك كتمكين المنافقين من ترك الصلاة هنالك مع خفاء على المؤمنين لعدم اجتماعهم في مسجد واحد، والتشاور بينهم في الكيد لرسول الله وغير ذلك.

٣- "**وتفريقاً بين المؤمنين** " : أي التفريق بين المؤمنين الذين هنالك، فإنهم كانوا يصلون جميعاً في مسجد قباء، وفي ذلك من مقاصد الإسلام الاجتماعية ما فيه، وهو التعارف والتآلف والتعاون وجمع الكلمة.

٤- "**وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله** " : أي : اتخاذ هذا المسجد "وكراً" لمحاربة الله ورسوله بالانتظار والترقب لمن حارب الله ورسوله أي يجيء محارباً، فيجد مكاناً مُرصداً له، وقوماً راصدين مستعدين للحرب معه، وهم هؤلاء المنافقون الذين بنوا هذا المسجد مرصداً لذلك.

---

(١) سورة التوبة، آية: ١٠٧.

(٢) سورة التوبة، آية: ١٠٨.

(٣) سيرة ابن هشام (ج٤/ ١٨٥).

والمفسرون متفقون على أن الذي أغراهم ببناء هذا المسجد لهذا الغرض، رجل من الخزرج يعرف بأبي عامر الراهب [١] وعدهم بأنه سيأتيهم بجيش من الروم لقتال النبي - وأصحابه [٢].

المطلب الرابع

المنافقون وتأسيس الفتنة الكبرى وتنشئة الفرق

أولاً: تأسيس الفتنة الكبرى

انجلت الظلمة بعد اغتيال الفاروق بإشراق عهد ذي النورين وشرع الخليفة الثالث عثمان رضي الله عنه في إكمال ما بدأه أسلافه من تمكين للدين في الداخل ونصرته في الخارج وتعززت في عهده رايات الفتوح حتى سارت قافلة الإسلام في عهد عثمان بأرواح ملائكية لا تخلو من هنات البشر ولكن بشرا آخرين أوغلوا في الغلو وتنطعوا في طلب الكمال الذي لم يقتربوا هم من حده الأدنى بل لم يلج بعضهم دين الإسلام أصلا حيث كشف النفاق عن حزبه الجديد ممثلا في عبد الله بن سبأ وجماعته، حيث اظهر ذلك الرجل اليهودي الملقب ب **(ابن السوداء)** الإسلام في زمن عثمان وانطلى نفاقه على كثيرين بل قل: اجتمع على نفاقه الكثيرون فبدأ ينشط في الشام والعراق ومصر زاعما النصح للمسلمين وهو لا يريد إلا تفريق صفوفهم وبث الخلاف بينهم وتجمع حوله أشباهه من المنافقين فكان منهم نفر ممن نزلوا مصر واستوطنوها مع الفاتحين ونفر آخر كانوا في العراق وآخر في الشام وبدأ المنافقون فتنتهم

---

(١) هو أبو عامر والد حنظلة غسيل الملائكة، وكان قد ترهب في الجاهلية ولبس المسوح وتنصر فلما قدم رسول الله المدينة قال له أبو عامر: ما هذا الدين الذي جئت به؟ فقال النبي: الحنيفية البيضاء دين إبراهيم عليه السلام قال: فأنا عليها فقال له النبي: إنك لست عليها فقال: بلى ولكنك أنت أدخلت فيها ما ليس منها فقال النبي: ما فعلت ولكن جئت بها بيضاء نقية فقال أبو عامر: أمات الله الكاذب منا طريداً وحيداً فأمّن النبي فسماه الناس أبا عامر الكاذب وسماه النبي الفاسق، مات أبو عامر وحيداً بقنسرين،(روح المعاني (ج١١/ ١٨-١٩)).

(٢) تفسير المنار (باختصار،(ج١١/ ٣٩-٤٠)).

بالتنادي بلا حياء بعزل من كان يستحي منه رسول الله.

وتجمع رعاع آخرون ممن لا يفقهون حول المطالبة بعزل عثمان بل تأثر بذلك بعض الصادقين من المؤمنين الذي شوشت عليهم دعايات المنافقين وتهويلاتهم وصدق الله إذ قال عن شأن المسلمين مع المنافقين ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٧]. لقد نشبت الفتنة ودب الصراع فكانت الثورة وكان المصيبة التي انتهت بقتل عثمان رضي الله عنه بعد أن حاصره هؤلاء الخوارج في بيته مدة أربعين يوماً وقتله المجرمون فسال دمه مفرقاً على المصحف الذي جمع الأمة عليه ولم يكن يدور بخلد أحد من أهل الإسلام أن تتطور فتنة النفاق السبئي لتصل إلى ما وصلت إليه حيث استغل المنافقون فرصة انصراف أكثر الصحابة إلى مكة للحج، ليسيطروا على المدينة ويتسلموا مقاليدها فاتحين بذلك باب الفتنة التي لم تغلق بعد ذلك فقد ظل (قتلة عثمان) موضوعاً لمزيد من الفتنة ومزيد من المصائب التي رزي الإسلام بها بسبب النفاق وأهله.

ثانياً : المنافقون وتنشئة الفرق:

لما قتل المنافقون من عصابة ابن سبأ عثمان - رضي الله عنه - وبويع علي - رضي الله عنه- بالخلافة باتت ظلال المصيبة مخيمة على الأجواء واختلطت مشاعر الحزن بمشاعر الغضب حتى استحالتا إلى رغبة في الانتقام ثم عزيمة على الثأر وأخذ بعض المسلمين القميص الذي قتل فيه عثمان ملطخاً بدمه - رضي الله عنه- ووضعوه على منبر المسجد بالشام حيث كان هناك معاوية - رضي الله عنه - ابن عم عثمان وواليه على الشام فاعتبر معاوية نفسه ولي دم عثمان وندب الناس للأخذ بثأره من قتلوه وانضم لهذا الطلب جمع من الصحابة وألح صحابه آخرون على علي - رضي الله عنه - في المدينة أن يقيم الحدود على قتلة عثمان فلم يمتنع - رضي لله عنه - عن ذلك وتبرأ من قتل عثمان وقتلته ولعنهم ولكنه طلب التمهل حتى تستقر الأمور لأن القوم كانت لا تزال لهم شوكة في المدينة بعد أن توافدوا إليها من الأمصار فأراد أن يداريهم حتى يتمكن منهم.

ولولا نفاق هؤلاء وتسترهم بالإسلام مع اختلاطهم في الناس لما أشكل

أخذهم والثأر منهم ولكنه النفاق الذي يخدع ويخادع ويخلط الأمور كلما كادت أن تصفو ولهذا عندما بدأ علي - رضي الله عنه - في ترتيب الأمور وتعيين ولاة جدد على الأمصار اختلفت كلمة الناس في معظم تلك الأمصار على أمراء علي كأثر مباشر على الاختلاف بشأن الموقف من القتلة حيث ظل هؤلاء الانكاد سببا للفرقة التي تفرقت في الأمصار كلها، لا بل أن جمعا منهم حاولوا أن يصطنعوا من أنفسهم بطانة لعلي - رضي الله عنه - فارضين أنفسهم عليه مما حال بينه - رضي الله عنه - وبين اقتراب كبار الصحابة منه.

وكان من أثر تمهل علي رضي الله عنه في الثأر من قتلة عثمان أن رأي معاوية - رضي الله عنه- مع من معه من أهل الشام إلا طاعة لعلي حتى يقتل قتلة ذي النورين رضي الله عنه وبدوره رأى علي أن ذلك منهم خروج وافتئات على الولاية الشرعية الجديدة والتبست الأمور بعوامل مختلطة وأمور مشتبهة تكاد لا تعرف منها حقيقة إلا حقيقة وجود منافقين تؤزهم الشياطين لتفريق المؤمنين ولكن الأمور كانت تظهر وكأنها تداعيات طبيعية للإحداث.

وكان من ذلك أن اتخذ الإمام علي قرارا بقتال أهل الشام باعتبارهم بغاة خارجين على ولايته.

وقبل خروجه رضي الله عنه إلى الشام كانت مكة تمور بأمر آخر إذ كان لا يزال فيها جمع كبير من الصحابة ممن كانوا في الحج فانتهزت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فرصة وجودهم وصارحتهم بضرورة الاجتماع للمطالبة بدم عثمان فاستجاب الناس لها ونزلوا على طلبها وأشار بعضهم باللحوق إلى الشام والانضمام إلى معاوية رضي الله عنه ليكونوا جميعا قوة في وجه قتلة عثمان الذين استحوذوا على الأمر في المدينة وأشار آخرون بالقدوم إلى المدينة نفسها ليطالبوا جميعا الإمام علي رضي الله عنه بأخذ القتلة بالشدة والحرب وأشار فريق ثالث بالذهاب إلى البصرة حيث يمكنهم هناك التقوى والاستعداد حتى تكون لهم شوكة يقاتلون بها أهل الشوكة في المدينة من الخوارج الذين صنعوا الفتنة بعد أن يبدؤوا بأنصارهم في البصرة نفسها واستقر الأمر على ذلك وتم العزم على الخروج من مكة إلى البصرة حيث وافق الاكثرون على هذا الرأي إلا بقية أزواج

النبي اللائي فضلن العودة إلى المدينة مع جمع آخر من الصحابة ويلاحظ هنا أن جميع الصادقين من الصحابة والتابعين كان لهم هدف واحد وإن اختلفوا في طريقة الوصول إليه وهو: كتم الفتنة وعقاب المتسببين فيها إحقاقاً للحق وانتصارا من الباطل أما أصحاب الفتنة نفسها ومن افتتن بهم فكانوا لا يزالون سائرين في طريقهما لا يلوون على شيء غيرها مدعين في الوقت نفسه إنهم بهذا الفساد مصلحون ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [البقرة: ١٢].

الذي حدث بعد ذلك أن جيش عائشة رضي الله عنها قصد البصرة حتى اقترب منها فلما علم بذلك واليها أرسل إليهم يستفسر عن سبب قدومهم فأعلمه قادة الجيش بذلك وظهر بعدها أن للخوارج قتلة عثمان نفوذا في البصرة فقد تحرشوا بجيش عائشة حتى اضطروهم للقتال وهم لم يكونوا يريدون ذلك في ذلك الوقت ولكن الأمر انتهى باستقرار الأمر في البصرة للقادمين من مكة مع عائشة رضي الله عنها بقيادة طلحة والزبير رضي الله عنهما.

ولما علم علي رضي الله عنه بسيطرة هؤلاء على البصرة عدل عن التوجه إلى الشام وعزم على قصد البصرة وانتدب الناس لذلك فامتنع الأكثرون مفضلين اعتزال الفتن الواقعة بين المسلمين ولكن تحمس لهذا الانتداب أهل الكوفة وأصر آخرون على إعطاء مسعى الصلح فرصة بين الفريقين وذلك بتفهم مراد الفريقين وإزالة اللبس بينهما وانتدب لذلك الصحابي الجليل القعقاع بن عمرو رضي الله عنه فسأل أهل البصرة عما يريدون فأجابوه إنهم يريدون الإصلاح الذي يبدأ بقتل قتلة عثمان.فأجابهم القعقاع بأن ما حدث من قتال في البصرة يكفي الآن وقد نال القتل في معارك البصرة عدداً من قتلة عثمان، ثم إن بقية القتلة لو كان في قتلهم مصلحة الآن فالمفسدة المترتبة على ذلك أكثر من المصلحة، فاستحسن أهل البصرة كلامه ووافقوا على الصلح ولم الشمل. واجتمعت كلمة عائشة وعلي - رضى الله عنهما - على ذلك وفرح المسلمون بهذا الاتفاق على إبرام الصلح وعزم علي رضى الله عنه على العودة وطلب من الناس ذلك مستثنيا من شارك بأي عمل في قتل عثمان رضى الله عنه.

وهنا ثار المنافقون لأنفسهم واغتموا بأخبار اجتماع كلمة المسلمين

واجتمع رؤوس الفتنة منهم مرة أخرى على ابن السوداء فتألف منهم جمع مشؤوم من ألفين وخمسمائة ليس فيهم صحابي واحد وأنكروا على علي رضي الله عنه استجابته للصلح وصرحوا بخوفهم أن يجمع علي عليهم الناس غدا وقال أحدهم - وهو الأشتر النخعي -: " أن صلح علي مع طلحة والزبير سيكون على دمائنا، وإذا فعل ذلك فسنلحقه بعثمان فنقتله كما قتلناه " فقام ابن سبأ ونهره وقال " لو قتلنا عليا قتلنا به فأنا يا معشر قتلة عثمان في الفين وخمسمائة وطلحة والزبير وأصحابهما في خمسة آلاف ولا طاقة لكم بهم وهم إنما يريدونكم " فرفض خطة قتل علي فسألوه : ماذا ترى إذن؟ فقال "يا قوم ! إن خيركم في خلطة الناس فإذا التقوا فانشبوا الحرب والقتال بينهم ولا تدعوهم يجتمعون فرضوا رأية واجتمعوا عليه منصرفين إلى مسعى بث الفرقة والاختلاف عن طريق الاختلاط بالناس كما أشار خبيثهم وبينما الجيشان المسلمان يسيران إلى طريق العودة للصلح تشاور الأشرار ثم عزموا على إثارة الحرب بينهما مع طلوع الفجر فنهضوا قبل الفجر بعد أن رتبوا بين ألفي مقاتل منهم أن يبتدئوا الحرب بالهجوم على من يلونهم في جيش طلحة والزبير ونفذوا ذلك بالفعل وبدؤوا الهجوم فثار الناس مغاضبين وتفاجؤوا بما يحدث ولم يكن هناك متسع للتأني والنظر في حقيقة ما يحدث بل سرعان ما خون كل فريق الآخر وتقاذف الجيشان الذاهبان للصلح تهم الغدر والخيانة ونشبت الحرب وازداد سعيرها بقتال المسلمين بعضهم بعضا في طائفتين دعواهما واحدة وقُتل المسلمين خلق كثير فجع لأجلهم علي - رضي الله عنه - حتى تمنى لما رأى القتل يستحر في أمة محمد " يا حسن ! ليت أباك مات منذ عشرين سنة فقال الحسن يا أبتِ قد كنت أنهاك عن هذا قال يابني لم أر أن الأمر يبلغ هذا وصدق رضي الله عنه فلم يكن ممكنا لأحد أن يتصور أن تبلغ خيانة المنافقين على الأمة إلى أن تنشب مثل هذه المعركة التي قتل فيها نحو عشرة آلاف من الطرفين منهم طلحة بن عبيد والزبير بن العوام المبشرين بالجنة. لم يقنع أصحاب الفتنة من السبئية بهذا بل طالبوا عليا رضي الله عنه أن يقسم بينهم أموال من قتلوا في الجيش الآخر ونساؤهم فلما أنكر عليهم ذلك طعنوا عليه وقالوا كيف تحل دماؤهم ولا

تحل أموالهم؟ "لقد أدى اختلاط الفجار واندماجهم في جيش علي - رضي الله عنه - إلى وقوع مقتلة الجمل على النحو الذي سارت عليه وكان هذا نفسه سببا كبيرا من أسباب تطور الأحداث حتى وصلت إلى موقعة صفين وما تلاها. قال الطحاوي رحمه الله " : وكان في عسكر علي- رضي الله عنه - من أولئك الطغاة الخوارج الذين قتلوا عثمان من لم يعرف بعينه ومن تنتصر له قبيلته ومن لم تقم عليه حجة بما فعله ومن في قلبه نفاق لم يتمكن من إظهاره كله ".

"وقد كان علي نفسه رضي الله عنه قد وصف أولئك المنافقين بقوله طلبوا الدنيا وحسدوا من أنعم الله عليه بها وأرادوا رد الإسلام والأشياء على أدبارها ".

وقد بدت آثار ذلك كله في الأحداث التي وقعت بعد معركة الجمل فالجريمة التي أقدم عليها قتلة عثمان كانت هي الخلفية التي تحرك الأحداث كلها فبقايا المشاركين في عملية القتل كانوا سببا في استمرار الفتن حتى تحولوا في النهاية إلى فرقة هي شر الفرق التي خرجت على الأمة إلا وهي فرقة الخوارج الذين يكفي في إظهار شرهم وفتنتهم أن قال فيهم رسول الله " هم شرار الخلق والخليقة".

وكانوا قد خرجوا على علي رضي الله عنه بعد أن كانوا ضمن جنوده بدعوى أنه قبل التحكيم والصلح مع معاوية رضي الله عنه وعدوا هذا التحكيم حكما بغير ما أنزل الله وعدوا الصلح موالاة لأعداء الله وقد اضطر علي رضي الله عنه لقتالهم في آخر الأمر بعد أن بارزوه بالعداوة والشقاق وأوقع بهم هزيمة نكراء في موقعة النهروان التي قتل فيه نحو أربعة آلاف خارجي وهم بدورهم لم يتركوه - رضي الله عنه - بل كانت نهايته على أيديهم حيث قتله الخارجي الأثيم عبد الله بن ملجم فأضافوا إلى جريمة قتل الخليفة الثالث عثمان قتل الخليفة الرابع علي رضي الله عنهما ومنذ أن اتخذ الخوارج ذلك الموقف اعتراضا على التحكيم والصلح عام ٣٨هـ نشأت الفرق السياسية

والاختلافات المذهبية الاعتقادية التي فرقت الأمة منذ ذلك الحين وإلى اليوم.

ومن الفتن التي تولدت عن الفتنة الأولى ثم ما تلاها من أحداث : ظهور فرقة الشيعة فقد نظر هؤلاء إلى علي رضي الله عنه على أنه يمثل موقف بيت النبوة وأن كل من خالفه فقد خالف هدى النبوة وأمانة الرسالة وبدأ هذا الموقف عاطفيا ثم تطور مذهبيا حتى اجتمعت حوله فرقة ذات طموحات سياسية وكان نشأتها حين انفصل الخوارج عن جيش علي فرأى من بقي منهم أنهم هم وحدهم شيعة علي ومن ثم شيعة أهل البيت ولم يكونوا وقتها يطعنون على أحد أصحاب رسول الله ولكن عمل فيهم النفاق عمله أيضا حيث ظهر فيهم من يفضل عليا على أبي بكر وعثمان بمجرد الهوى ثم تطور إلى رفض خلافتهما وشتم من يراها شرعية ثم تطور الأمر إلى القول بعصمة آل البيت والأئمة الاثنى عشر منهم وقد ساهم منافقو الفرس الذين فتح الفاروق عمر بلادهم ثم أكملها عثمان - رضي الله عن الشيخين - ساهم هؤلاء المجوس في بث العداوة والفرقة في الأمة بالطعن على السلف والتآمر ضدهم وكان ذلك قد بدأ بقتل عمر رضي الله عنه على يد أبي لؤلؤة المجوسي ثم تحول الى تبني ذلك المذهب الشيعي الذي لا يزال أخطر مذهب مناوئ لمذهب السلف وطريق أهل السنة والجماعة اعتقاديا وسياسيا.

ومما يجدر ذكره هنا أن فتنة قتل عثمان رضي الله عنه ولدت أيضا إضافة إلى فرقتي الخوارج والشيعة فرقة ثالثة هي فرقة المرجئة فقد ظهر هؤلاء بموقف ثالث مختلف عن موقف الخوارج وموقف الشيعة من علي فقالوا: لا نشهد عليهما بإيمان ولا كفر وكان هذا مبدأ قولهم وقد سئل سفيان بن عيينة عن الإرجاء فقال " قوم أرجوا أمر علي وعثمان، فقد مضى أولئك فأما مرجئة اليوم فهم يقولون: الإيمان قول بلا عمل فلا تجالسوهم، ولا تؤكلوهم، ولا تشاربوهم، ولا تصلوا معهم، ولا تصلوا عليهم".

إنك لا تكاد إلا تنظر في تاريخ تأسيس فرقة من الفرق الضالة إلا وتجد خلف تنشئتها والتأصيل لها رجالا مشبوهين متهمين على دينهم من إفراج أعداء الإسلام الظاهرين.

المطلب الخامس

دور المنافقين في استقدام الصليبيين

تظاهر رأس من رؤوس المنافقين بالتشيع وكان يدعى أبا الخطاب ابن الأجدع وهو الذي نسبت إليه الفرقة الخطابية وسلك النفاق المعتاد بادعاء الصلاح فصاحب جعفر الصادق في حياته وادعى أنه وصية بعد مماته رغم تبرؤ جعفر منه وتتلمذ على أفكار، ذلك المنافق زنديق آخر هو ميمون القداح المنحدر من أصول يهودية وعمد هذا الآخر إلى الدعوة للتشيع على الطريقة الإسماعيلية المنحرفة وتحركت بإيحاء من تلك الأفكار الحركة القرمطية التي تبنت نشر المذهب الإباحي الداعي إلى إباحة كل المحرمات وإسقاط الواجبات.

وكان لميمون القداح حفيد يدعى (سعيد) ادعى أنه أحد أبناء الأئمة المستورين من ذرية إسماعيل بن جعفر الصادق فزعم على هذا أنه علوي يستحق الخلافة وقد بدأ يدعو إلى نفسه بالخلافة بعد أن سمي نفسه (عبيد الله) وشايعه جمع من المنافقين على ذلك وأشاعوا أنه حقا من العلويين من ولد فاطمة رضي الله عنها وتطورت دعوتهم بعد أن كسبت الأنصار فأقاموا الدولة (الفاطمية) بالمغرب وكان إخوانهم القرامطة والإسماعيلية قد أقاموا دولا قبل ذلك في البحرين واليمن. واستمرت دولة العبيدين في المغرب من عام ٢٩٧ هـ حتى عام ٣٦٣ هـ حيث انتقلت بعد ذلك إلى مصر في عهد الخليفة العبيدي (المعز لدين الله) فأقام لدولة النفاق الشيعي كيانا بمصر.

وقد كان هؤلاء العبيديون الخبثاء طيلة عهود يقربون الكفار وبخاصة النصارى ويتخذون منهم البطانة ويولونهم المناصب ويكثرون من الزواج منهم وكانت هذه البطانة سببا أساسيا من أسباب استفحال أمر النصارى في الشام بعد سيطرة العبيدين عليها حتى آل أمر الشام إلى أن سقطت في أيدي الصليبيين بعد أن فر أمراء العبيديين منها وتركوها لقمة سائغة لهم حتى احتلوا القدس وسيطروا على المسجد الأقصى ورفعوا الصلبان على مآذنه.

المطلب السادس
المنافقون وسقوط الخلافة

أولاً : سقوط الخلافة العباسية :

تساهل آخر خلفاء العباسيين الخليفة المستعصم بالله في اتخاذ بطانة من المنافقين فقد قرب إليه أحد الروافض الخبثاء وجعله وزيره ومستشاره وهو : محمد بن أبي طالب مؤيد الدين العلقمي وكان هذا الزنديق راغبا في تحويل الخلافة عن أهل السنة إلى أهل الشيعة ولما كان الشيعة وقتها في حالة من الذلة لا تسمح لهم بذلك، فقد عزم ذلك المنافق المتسمي بالإسلام أن يستخدم لهذه الغاية الكفار الصرحاء فأغرى ملك الدولة الوثنية التتارية (هولاكو) بغزو دولة الخلافة العباسية وكاتبه في ذلك فاستجاب هولاكو وطلب من ابن العلقمي أن يمهد لذلك أولا من طرفه بأن يستغل قربه من الخليفة لكي ينصحه بتسريح أكبر عدد ممكن من الجيش العباسي. وبالفعل استطاع العلقمي أن يقنع الخليفة بتسريح خمسة عشر ألف من فرسان الجيش بذريعة خفض النفقات، ولما اعفوا من الخدمة في جيش الخلافة أمرهم الوزير المشئوم بأن يغادروا ويبحثوا عن أرزاقهم خارجها وبعد ذلك بمدة اقنع الخليفة بتسريح عشرين ألفا آخرين مدعيا أمامه أن البلاد في أمان ولا تحتاج إلى كل هؤلاء الجنود وظل هذا الخبيث وغيره من المنافقين سائرين على هذه الطريقة في إضعاف الدولة العباسية عسكريا حتى استيقن بأنها قد بلغت أشد حالات الضعف فقد أصبح جيشها لا يزيد عن عشرة آلاف جندي بعد أن كانوا في آخر عهد الخليفة السابق نحو مائة ألف جندي وعندما أنجز تلك المهمة القذرة في غفلة الولاة اللاهين عن جهاد المنافقين أوعز العلقمي إلى هولاكو بأن يقدم إلى عاصمة الخلافة ولا يضيع الفرصة.

فقدم الملك الوثني بجيوشه جرارة من مئتي ألف مقاتل وفاجأ أهل بغداد وجنودها فاستقبله ابن العلقمي مع جمع من أنصاره وحاشيته ثم عاد فأشار على الخليفة بأن يخرج إلى هولاكو ليصالحه على نصف خراج العراق فخرج ومعه سبعمائة من القضاء والعلماء والأمراء فأمر هولاكو بعزل هؤلاء جميعا عن

الخليفة إلا سبعة عشر شخصا وقتل الباقين وأحضر الخليفة ومن معه إلى مجلسه وأهانهم ثم أعادهم إلى بغداد ومعهم ابن العلقمي ليأتوا بما في بيت المال من كنوز وأموال ويبدو أن هولاكو كان مستعدا لأن يكتفي بهذا ويقبل الصلح على أن يعطي نصف خراج العراق ولكن المنافقين الشياطين نصحوه بغير ذلك. قال ابن كثير: " وقد أشار أولئك الملأ من الرافضة وغيرهم من المنافقين على هولاكو أن لا يصالح الخليفة وقال الوزير ابن العلقمي: متى وقع الصلح على المناصفة لا يستمر هذا عاما أو عامين ثم يعود إلى ما كان عليه قبل ذلك وحسنوا له قتل الخليفة فلما عاد الخليفة إلى السلطان هولاكو أمر بقتله.

وقد قتل الخليفة بمشورة " مؤيد الدين العلقمي ونصير الدين الطوسي".

ويحار المرء عندما يقرأ عن الطريقة التي قتل بها الخليفة من أيهما يعجب من طغيان وجبر الكفار الظاهرين الذين باشروا القتل أم من خسة وذلة ونذالة المنافقين الذين أشاروا بالقتل.

لقد وضعوا الخليفة في كيس وقتلوه رفساً أما بغداد وأهلها فقد فتح عليهم الوثنيون التتار أبوابا من الجحيم فأباحوها أربعين يوما يعملون القتل فيها ويشيعون الدمار حتى أحصي القتلى في تلك المدة بألفي ألف نفس وكوفئ الوزير(مؤيد الدين) فعينه هولاكو وزيراً في الحكومة الجديدة على أطلال بغداد التي خربها النفاق .

ثانياً : سقوط الخلافة العثمانية:

مهما قيل عن خلافة آل عثمان من الأتراك وما كان عليها من المآخذ فإن التاريخ يحفظ لهم أنهم حافظوا على وحدة العالم الإسلامي في كيان سياسي عالمي استمر ما يزيد على خمسة قرون صدوا خلالها عن المسلمين الحملات الشرسة من كفار الشرق والغرب من الروس والأوروبيين.

ولكن تلك الخلافة التي أذلت كبرياء طواغيت العالم في العديد من الملاحم تكرر معها في أواخر عهدها أمر قريب مما حدث مع الدولة العباسية حين استوزر الخلفاء وقربوا عناصر من المنافقين الحاقدين على الإسلام

الحاملين لأسماء المسلمين فقد سيطر على مقاليد الأمور في تركيا في أواخر عهد الخلافة شرذمة من منافقي اليهود الذين كانوا قد قدموا إلى تركيا من أسبانيا بعد أن طردهم النصارى من هناك بعد انتهاء حكم المسلمين في الأندلس وتكون تحالف غير مقدس من اليهود الصرحاء والنصارى في الخارج مع المنافقين الأتراك في الداخل سواء كانوا من أصول تركية أو من هؤلاء الدخلاء المهاجرين الذين كانوا مع أعداء الأمة قلباً وقالباً. واللافت هنا أن عصابة المنافقين هؤلاء الذين كان يطلق على أسلافهم يهود الدونمة، لم يتحركوا في بلاد الإسلام إلا تحت مسمى الإسلام ويعجب المرء : كيف أمن المسلمون لهؤلاء أن يتركوهم على هذه الحال من الترقي في مناصب الدولة وهم يعلمون أصولهم وخبثهم ولم تكن لهم دلائل صدق في الإيمان حتى يصلوا إلى مناصب الوزراء وقادة الجيوش ؟ لقد نشط هؤلاء منذ هلاك مؤسس حركتهم (سابتي زيفي) عام ١٦٧٥م في توهين أمر الإسلام في تركيا وذلك من خلال التحرك ضمن جمعيات سرية مشبوهة ظهر بعد ذلك إنها كلها كانت تتحرك بإيعاز من اليهود وتطور ذلك مع تطور السعي اليهودي للعودة إلى مسرح السياسة في العالم في أواخر القرن التاسع عشر.

ومع مجيء القرن العشرين كان التنسيق بين اليهود وبين المنافقين الأتراك قد بلغ مداه وبخاصة عندما رفض السلطان العثماني عبد الحميد أن يعطي اليهود فلسطين ليقيموا عليها دولة لهم. فعندها عزم زعيم الصهيونية الحديثة (تيودور هرتزل) على إزاحة تلك العقبة أعني الخلافة ليقيم اليهود على انقاضها دولة للمنافقين المرتدين في تركيا ثم دولة لليهود الظاهرين في فلسطين ولم يكن بوسع هرتزل ولا من حوله من المنظمات اليهودية المدعومة بنصارى أوروبا أن يصلوا إلى هذين الهدفين لولا أولئك المنافقون المتسمون بأسماء المسلمين داخل تركيا.

فقد تأسس المحفل الماسوني المسمى بـ " محفل الشرق العثماني " في تركيا ليكون ناديا للضرار يضم في أعضائه كل عدو لدود للإسلام وشكل المنافقون الأتراك أيضا جمعية (الاتحاد والترقي) وحزب (تركيا الفتاة) ليضموا

في أعضائها عناصرهم من القادة في الجيش وغيره من مرافق الدولة وبدأ الجميع يتحركون في غفلة من الساسة والعلماء وأهل الفكر من المسلمين الذين غفلوا أو تغافلوا عن حكم الله في إبعاد المنافقين وجهادهم والغلظة عليهم حتى انتهى الأمر إلى إسقاط الخلافة العثمانية وإلغاء منصب الخليفة على يد أكبر رموز النفاق في القرن المنصرم: مصطفى كمال اتاتورك. وعندها خلع المنافقون رداء الإسلام وارتدوا ثوب الردة المسماة (العلمانية) تلك الراية الكفرية الفضفاضة التي أظلت تحت جناحها كل جبار عنيد .

ولكن تلك الردة تلك أعني العلمانية أبت أيضا أن تستأنف مسيرتها إلا على الطريق نفسه الذي سار عليه ابن سلول وابن سبأ وميمون القداح والعلقمي وسبتاي زيفي وكمال أتاتورك.. إنه طريق النفاق وهو الطريق الذي ظل موصلا إلى يومنا هذا حيث يمكننا أن نقول:أن مسيرة الذل التي تسير فيها الأمة منذ أكثر من قرن من الزمان لم يذلل سبلها ويمهد طرقها إلا طوائف المنافقين الذين اتخذوا من الكافرين أولياء فأسلموهم أمة الإسلام وأخضعوها لهم ومكنوهم من تركيعها عسكريا واستلابها حضاريا والتحكم فيها سياسياً واقتصادياً في غيبة سلطان الحكم بدين الإسلام الذي عملوا قبل الأعداء على محاربته ومحاربة أهله بالأصالة عن أنفسهم حينا وبالنيابة عن الأعداء أحياناً.

وعلى نفس النهج سار منافقي العصر الحديث، حيث تعاونوا مع أمريكا إعلامياً وسياسياً وعسكرياً واقتصادياً لدخول العراق، بحجة واهية وهي امتلاك العراق أسلحة الدمار الشامل، وقد كذبت التحقيقات التي تمت امتلاك العراق لأسلحة الدمار الشامل، وما هي إلا حجة واهية للسيطرة على مقدرات العراق، والقضاء على الإسلام، وقد نطق بها رئيس الولايات المتحدة وقال أنها حرب صليبية.

وأيضاً هذا ما حدث عند دخول أفغانستان وكانت الحجة القضاء على الإرهاب، وما هو إلا هدف ظاهر متقبل إعلامياً - حيث إلى الآن لم يحدد تعريف متفق عليه للإرهاب - وقد فشلت أمريكا في القضاء على الإرهاب.

وأيضاً أعلنوا هدفاً إنسانياً للدخول في دارفور بالسودان ..

وهكذا تكثر الرايات المرفوعة لاحتلال البلاد الإسلامية ويبقى الهدف الأساسي والحقيقي لهم هو القضاء على الإسلام والمقاومة الإسلامية.

وهذه الرايات والأساليب الخادعة لا تنطلي على المؤمنين الصادقين، الذين ينظرون بنور الله، ويستضيئون بكتاب الله وسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم - ويستبصرون بسيرة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مع هؤلاء وأمثالهم: قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾(١).

المطلب السابع

الموقف الشرعي تجاه المنافقين

أولاً: النهي عن موالاتهم والركون إليهم:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ (آل عمران: ١١٨).

ثانياً: زجرهم ووعظهم:

قال تعالى:

ثالثاً: عدم المجادلة أو الدفاع عنهم: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾ (النساء: ٦٣).

رابعاً: جهادهم والغلظة عليهم:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾. (التوبة: ٧٣).

خامسًا: تحقيرهم وعدم تسويدهم:

عن بريدة مرفوعاً: " لا تقولوا للمنافق سيّد، فإنه إن يك سيداً فقد أسخطتم ربكم عز وجل".

سادساً: عدم الصلاة عليهم:

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ (التوبة: ٨٤).

---

(١) سورة النساء، الآية ١٤٠.

الفوائد :

١- بالصبر والتقوى يتلقى المؤمنون أذى العدو :

﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾ [آل عِمرَان: ١٢٠] أرشد الله المؤمنين إلى كيفية تلقي أذى العدو: بأن يتلقوه بالصبر والحذر، وعبر عن الحذر بالاتقاء أي اتقاء كيدهم وخداعهم، وقوله: ﴿لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ﴾ [آل عِمرَان: ١٢٠] أي بذلك ينتفي الضر كله لأنه أثبت في أول الآيات أنهم لا يضرون المؤمنين إلا أذى، فالأذى ضر خفيف، فلما انتفى الضر الأعظم الذي يحتاج في دفعه إلى شديد مقاومة من قتال وحراسة وإنفاق، كان انتفاء ما بقي من الضر هينا، وذلك بالصبر على الأذى إلى ما يوصل ضرا عظيما. وفي الحديث (لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله يدعون له ندا وهو يرزقهم).(١)

٢- إن الدعوات في حاجة إلى طبائع صُلبة مستقيمة ثابتة مصممة تصمد في الكفاح الطويل الشاق : والصف الذي يتخلله الضعاف المترفون لا يصمد لأنهم يخذلونه في ساعة الشدة فيشيعون فيه الخذلان والضعف والاضطراب.

٣- دور الجماعة المسلمة مع من يتخلفون ساعة الشدة :

"فالذين يضعفون ويتخلفون يجب نبذهم بعيداً عن الصف وقاية له من التخلخل والهزيمة. والتسامح مع الذين يتخلفون عن الصف في ساعة الشدة، ثم يعودون إليه ساعة الرخاء، جناية على الصف كله، وعلى الدعوة التي يكافح في سبيلها كفاحه المرير "(٢).

---

(١) التحوير والتنوير، (٤/ ٨١٢).

(٢) الظلال، (٣/ ١٦٨٢-١٦٨٣).

الفصل الخامس

فرح الكافرين

المبحث الأول

فرح جحود النعم

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾[1].

أخبر تعالى أنه ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ أي يحفظكم ويكلؤكم بحراسته ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا﴾ أي بسرعة سيرهم رافقين فبينما هم كذلك إذ ﴿جَآءَتْهَا﴾ أي تلك السفن ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ أي شديدة ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي اغتلم البحر عليهم ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ أي هلكوا ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي لا يدعون معه صنما ولا وثنا بل يفردونه بالدعاء والابتهال كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ وقال ههنا ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ﴾ أي هذه الحال ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي لا نشرك بك أحدا ولنفردنك بالعبادة هناك كما أفردناك بالدعاء.

وقال تعالى:

﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾[2].

---

(١) يونس: ٢٢

(٢) الشورى: ٤٨

أي : إذا أصابه رخاء ونعمة فرح بذلك ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ﴾ يعني الناس ﴿سَيِّئَةٌۢ﴾ أي جدب ونقمة وبلاء وشدة ﴿فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾ أي يجحد ما تقدم من النعم ولا يعرف إلا الساعة الراهنة فإن أصابته نعمة أشر وبطر وإن أصابته محنة يئس وقنط.

والمؤمن كما قال صلى الله عليه وسلم "**إن أصابته سراء فشكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن**".

قال الفخر الرازي في تفسيره : " لفظ الإنسان في هذه الآية فيه قولان" :

القول الأول : المراد منه مطلق الإنسان ويدل عليه وجوه :

الأول : أنه تعالى استثنى منه قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [هُود: ١١] والاستثناء يخرج من الكرم ما لولاه لدخل فثبت أن الإنسان المذكور في هذه الآية : المؤمن والكافر.

الثاني : أن هذه الآية موافقة على هذا التقرير لقوله تعالى : ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [العَصر: ١-٣].

الثالث : أن مزاج الإنسان مجبول على الضعف والعجز قال ابن جريج في تفسير هذه الآية : يا ابن آدم إذا نزلت بك نعمة من الله فأنت كفور وإذا نزعت منك فيؤس قنوط.

القول الثاني : المراد منه الكافر : ويدل عليه وجوه :

الأول : أن الأصل في المفرد المحلى بالألف واللام أن يحمل على المعهود السابق لولا المانع وهنا لا مانع فوجب حمله عليه والمعهود السابق هو الكافر في الآية المتقدمة.

الثاني : أن الصفات المذكورة للإنسان في هذه الآية لا تليق إلا بالكافر:

١ - لأنه وصفه بكونه يؤساً وتلك من صفات الكافر لقوله تعالى ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يُوسُف: ٨٧].

٢ - ووصفه أيضاً بأنه كفور وهو تصريح بالكفر .

٣ -ووصفه بأنه عند وجدان الراحة يقول (ذهب السيئات عني " وذلك جراءة على الله تعالى".

٤ -و وصفه أيضاً بكونه فرحاً (و الله لا يحب الفرحين).

٥ - ووصفه بأنه فخوراً وذلك ليس من صفات أهل الدين.

أما قوة الفرح فلأن منتهى طمع الكافر هو الفوز بهذه السعادات الدنيوية، وهو منكر للسعادات الأخروية الروحانية، فإذا وجد الدنيا فكأنه قد فاز بغاية السعادات فلا جرم يعظم فرحه بها، وأما كونه فخوراً، فلأنه لما كان الفوز بسائر المطلوب نهاية السعادة فلا جرم يفتخر به فحاصل الكلام أنه تعالى بين أن الكافر عند البلاء لا يكون من الصابرين، وعند الفوز بالنعماء لا يكون من الشاكرين "[(١)].

المبحث الثاني

فرح الكافرين بالفخر على الغير

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾﴾[(٢)].

"إنه لفرح فخور: أي فرح بما في يده بطر فخور على غيره.

مسببات الفخر على الغير :

بين الله – عز وجل – في محكم تنزيله مسببات فخر الأمم والجماعات والأفراد على بعضها :

١- القوة.

٢- الكثرة في الأموال والأولاد.

٣- العمران.

٤- العلم الظاهري.

٥- الآثار.

(١) تفسير الرازي،(٩/١٩٨- ١٩٩).

(٢) سورة هود: ١٠.

ففي القوة والآثار والعمران : قال تعالى :

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا﴾(١)،

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾(٢).

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾﴾ [غافر: ٢١](٣).

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾﴾(٤).

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾﴾(٥).

وفي الكثرة والعلم قال تعالى :

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾﴾(٦).

أولاً : على مستوى الأمم والجماعات :

قال الإمام ابن كثير : " كانت الأمم الماضية في القرون السابقة أشد

(١) سورة الروم، الآية: ٩.
(٢) سورة فاطر الآية، ٤٤.
(٣) سورة غافر الآية، ٢١.
(٤) سورة فصلت، الآية ١٥.
(٥) سورة محمد، الآية: ١٣.
(٦) سورة غافر، الآيتان ٨٢ ـ ٨٣.

منكم قوة أيها المبعوث إليهم محمد وأكثر أموالاً وأولاداً، وما أُوتيتم معشار ما أُوتوا ومُكِنوا في الدنيا تمكيناً لم تبلغوا إليه وعمَّر فيها أعماراً طويلة فعمروها أكثر منكم، واستغلوها أكثر من استغلالكم، ومع هذا فلما جاءتهم رسلهم بالبيانات وفرحوا بما أُوتوا أخذهم الله بذنوبهم وما لهم من الله من واق، ولا حالت أموالهم وأولادهم بينهم وبين بأس الله ولا دفعوا عنهم مثقال ذرة، وما كان الله يظلمهم فيما أحل بهم من العذاب والنكال "[١]

وقال سيد قطب - رحمه الله - : "و آثاروا الأرض وحرثوها وشقوا عن باطنها، وكشفوا عن ذخائرها..فقد كانوا أكثر حضارة وأقدر على عمارة الأرض .. ثم وقفوا عند ظاهر الحياة الدنيا لا يتجاوزونه إلى ما وراءه.. وجاءتهم رسلهم بالبيانات، فلم تتفتح بصائرهم لهذه البيانات ولم يؤمنوا فتصل ضمائرهم بالنور الذي يكشف الطريق، فمضت فيهم سنة الله في المكذبين، ولم تنفعهم قوتهم، ولم يغن عنهم علمهم، ولا حضارتهم، ولقوا جزاءهم العادل الذي يستحقونه".

"و العلم بدون إيمان فتنة.فتنة تعُمي وتُطغي. ذلك أن هذا العون من العلم الظاهري يوحي بالغرور، إذ يحسبه صاحبه أنه يتحكم بعلمه هذا في قوى ضخمة ويملك مقدرات عظيمة فيتجاوز بنفسه قدرها وينسى الآماد التي يجهلها وهي موجودة في هذا الكون، ولا سلطان له عليها.بل لا إحاطة له بها، بل لا معرفة له بغير أطرافها القريبة. وبذلك ينتفخ فيأخذ أكثر من حقيقته ويستخفه علمه وينسى جهله. ولو قاس ما يعلم إلى ما يجهل. وما يقدر عليه في هذا الكون إلى ما يعجز حتى عن إدراك سره الكامن من كبريائه، وخفف من فرحه الذي يستخفه "[٢].

نهاية الأمم والجماعات المختالة على الغير :

وبينما هم يعرضون عضلاتهم ويتباهون بقوتهم.فانظر إلى المصرع

(١) تفسير ابن كثير، (ج٣/ ٤٣٧).
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب،(ج٥/ ٣١١٧-٣١١٨).

المناسب لهذا العُجب المرذول.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [فُصِّلَت: ١٦].

إنها العاصفة الهوجاء المجتاحة الباردة في أيام نحس عليهم، وإنه لخزي الدنيا.الخزي اللائق بالمستكبرين المختالين على العباد. وليسوا متروكين في الآخرة ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فُصِّلَت: ١٦].

ثانياً : على مستوى الأفراد :

وهذه الآية أيضاً بيان لحال الإنسان في اختبار الله له :

" لئن أعطيناه نوعاً من أنواع النعم رحمة منا مبتدأة أذقناه لذتها، فكان مغتبطاً بها كالصحة والأمن وسعة الرزق والولد البار ﴿ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ﴾ [هُود: ٩] بما يحدث من الأسباب بمقتضى سنتنا في الخلق من مرض وعسر وفتن وموت ﴿إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ﴾ [هُود: ٩] أي: إنه في هذه الحال شديد اليأس من رحمة الله، مقطوع للرجاء من عودة تلك النعمة، كثير الكفران وغيرها من النعم التي لا يزال يتمتع بها، فضلاً عما سلف منها فهو يجمع بين اليأس عما نزع منه، والكفر بما بقى له لحرمانه من فضيلتي الصبر والشكر.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾ [هُود: ١٠] النعماء بالفتح اسم من أنعم عليه إنعاماً -كالنعمة بالكسر والنعمة بالضم - وهو ما يقابل بالضراء من الضر الذي يقابل به النفع ولم ترد النعماء في التنزيل إلا في هذه الآية وهذه الإذاقة أخص مما قبلها وهي تتضمن كشف الضراء السابقة وإحلال ما هو ضدها محلها كالشفاء من المرض وزيادة العافية والقوة السابغة والمخرج من العسر والفقر، إلى سعة الغنى واليسر والنجاة والخوف والذل إلى بحبوحة المنعة والعز يقول تعالى: "و لئن منحنا هذا الإنسان اليئوس الكفور نعماء أذقناه لذتها ونعمتها بعد ضراء مسته باقترافه لأسبابها إثر كشفها وإزالتها "ليقولن ذهب أي ذهب ما كان يسؤني من المصائب والضراء فلن تعود فما هي إلا سحابة صيف تقشعت فعلى أن أنساها بالتمتع باللذات ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾

[هود: ١٠] أي: إنه في هذه الحالة لشديد الفرح والمرح الذي يهيجه البطر بالنعمة ومبالغ بالفخر والتعالي على الناس والاحتقار لمن دونه فيها فهو لا يقابلها بشكر الله عليها.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ [هود: ١١]: على ما أصابهم من الضراء إيماناً بالله احتساباً للأجر عنده (و عملوا الصالحات) عند كشفها وتبديل النعماء بها من شكره تعالى باستعمال النعمة فيما يرضيه تعالى من عمل البر وغير ذلك من عبادته وشكره ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾: واسعة من ربهم تمحو من أنفسهم ما علق بها من ذنب أو تقصير ﴿وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ [هود: ١١] في الآخرة على ما وفقوا له من بر وتشمير، فإن الإنسان وإن كان مؤمناً باراً لا يسلم في الضراء والمصائب من ضيق صدر، قد ينافي كمال الرضى أو يلابس بعض الوزر، وفي حال النعماء من شيء من الزهو والتقصير في الشكر وكل منهما يغفر له بصبره وشكره وإنابته إلى ربه "(١)

المبحث الثالث

فرح التحزب بالضلال

﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ٥٣﴾(٢).

وقوله: ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ﴾ أي الأمم الذين بعثت إليهم الأنبياء ﴿كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣] أي يفرحون بما هم فيه من الضلال لأنهم يحسبون أنهم مهتدون ولهذا قال متهددا لهم ومتواعدا.

قال سيد قطب: " لقد تنازعوا الأمر حتى مزقوه بينهم مزقاً، وقطعوه في أيديهم قطعاً.ثم مضى كل حزب بالمزقة التي خرجت في يده، مضى فرحاً لا ينكر في شيء ولا يلتفت إلى شيء، مضى فأغلق على حسه جميع المنافذ التي تأتيه منها أية نسمة طليقة أو يدخل إليها منها أي شعاع ".

(١) تفسير المنار، محمد رشيد رضا، (١٢/ ٢٢٨).
(٢) المؤمنون: ٥٣.

قال ابن عاشور : " جيء بفاء التعقيب لإفادة أن الأمم لم يتريثوا عقب تبليغ الرسل إياهم. أن تقطعوا أمرهم بينهم فاتخذوا آلهة كثيرة فصار دينهم متقطعا قطعا لكل فريق صنم وعبادة خاصة به. فالكلام مسوق مساق الذم. ولذلك قد تفيد الفاء مع التعقيب معنى التفريع، أي فتفرع على ما أمرناهم به من التوحيد أنهم أتوا بعكس المطلوب منهم، فيفيد الكلام زيادة على الذم تعجيبا من حالهم. ومما يزيد معنى الذم تذييله بقوله: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾. أي وهم ليسوا بحال من يفرح.

فالمعنى: قطعوا أمرهم بينهم قطعا كثيرة، أي تفرقوا على نحل كثيرة فجعل كل فريق منهم لنفسه دينا.

والزُبر بضم الزاي وضم الموحدة كما قرأ به الجمهور جمع زبور وهو الكتاب. استعير اسم الكتاب للدين لأن شأن الدين أن يكون لأهله كتاب، فيظهر أنها استعارة تهكمية إذ لم يكن لكل فريق كتاب ولكنهم اتخذوا لأنفسهم أديانا وعقائد لو سجلت لكانت زبرا.

وجملة :﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾: تذييل لما قبله لأن التقطع يقتضي التحزب فذيل بأن كل فريق منهم فرح بدينه.

والمعنى: أنهم فرحون بدينهم عن غير دليل ولا تبصر بل لمجرد العكوف على المعتاد، وذلك يومئ إليه :لديهم: المقتضي أنه متقرر بينهم من قبل، أي بالدين الذي هو لديهم فهم لا يرضون على من خالفهم ويعادونه، وذلك يفضي إلى التفريق والتخاذل بين الأمة الواحدة وهو خلاف مراد الله ولذلك ذيل به قوله : ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الأنبياء: ٩٢].وقديما كان التحزب مسببا لسقوط الأديان والأمم وهو من دعوة الشيطان التي يلبس فيها الباطل في صورة الحق.

والحزب: الجماعة المجتمعون على أمر من اعتقاد أو عمل، أو المتفقون عليه[١].

---

(١) التحرير والتنوير،(١٢/ ٢٨٤٢).

وقال أيضاً في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا﴾ [الأنعام: ١٥٩]: " المراد بالدين دين الإسلام. ومعنى مفارقتهم إياه ابتعادهم منه، فاستعيرت المفارقة للنبذ إذ كان الإسلام هو الدين الذي فطر الله عليه الناس فلما لم يتبعوه جعل إعراضهم عنه كالمفارقة لشيء كان مجتمعا معه، وليس المراد الارتداد عن الإسلام".

والشيع: جمع شيعة وهي الجماعة التي تشايع، أي توافق رأيا.

والحزب: الجماعة الذين رأيهم ونزعتهم واحدة. و"ما لديهم": هو ما اتفقوا عليه.

والفرح: الرضا والابتهاج. وهذه حالة ذميمة من أحوال أهل الشرك يراد تحذير المسلمين من الوقوع في مثلها، فإذا اختلفوا في أمور الدين الاختلاف الذي يقتضيه اختلاف الاجتهاد أو اختلفوا في الآراء والسياسات لاختلاف العوائد فليحذروا أن يجرهم ذلك الاختلاف إلى أن يكونوا شيعا متعادين متفرقين يلعن بعضهم بعضا ويذيق بعضهم بأس بعض."[1]

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الروم: ٣٦-٣٧]. " أعيد الكلام على أحوال المشركين زيادة في بسط الحالة التي يتلقون بها الرحمة وضدها تلقيا يستوون فيه بعد أن ميز فيما تقدم حال تلقي المشركين للرحمة بالكفران المقتضي أن المؤمنين لا يتلقونها بالكفران. فأريد تنبيههم هنا إلى حالة تلقيهم ضد الرحمة بالقنوط ليحذروا ذلك ويرتاضوا برجاء الفرج والابتهال إلى الله في ذلك والأخذ في أسباب انكشافها. والرحمة أطلقت على أثر الرحمة وهو المنافع والأحوال الحسنة الملائمة كما ينبغي عنه مقابلتها بالسيئة وهي ما يسوء صاحبه ويحزنه فالمقصد من هذه الآية تخلق المسلمين بالخلق الكامل، ف " الناس": مراد به خصوص المشركين بقرينة أن الآية ختمت بقوله ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

---

(١) (٣٢٤٥/١٤).

وقدمت في هذه الآية إصابة الرحمة على إصابة السيئة عكس التي قبلها للاهتمام بالحالة التي جعلت مبدأ العبرة وأصل الاستدلال، فقوله ﴿فَرِحُواْ بِهَا﴾: وصف لحال الناس عندما تصيبهم الرحمة ليبنى عليه ضده في قوله: ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾. لما يقتضيه القنوط من التذمر والغضب، فليس في الكلام تعريض بإنكار الفرح حتى نضطر إلى تفسير الفرح بالبطر ونحوه لأنه عدول عن الظاهر بلا داع. والمعنى: أنهم كما يفرحون عند الرحمة ولا يخطر ببالهم زوالها ولا يحزنون من خشيته، فكذلك ينبغي أن يصبروا عندما يمسهم الضر ولا يقنطوا من زواله لأن قنوطهم من زواله غير جار على قياس حالهم عندما تصيبهم رحمة حين لا يتوقعون زوالها، فالقنوط هو محل الإنكار عليهم وهذا كقوله تعالى: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾﴾ [فصلت: ٤٩] في أن محل التعجيب هو اليأس والقنوط"[١].

المبحث الرابع

فرح ترك وتبديل الدين

﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾[٢]

" أي لا تكونوا من المشركين الذين قد فرقوا دينهم أي بدلوه وغيروه وآمنوا ببعض وكفروا ببعض وقرأ بعضهم ﴿فَرَّقُواْ دِينَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥٩] أي تركوه وراء ظهورهم وهؤلاء كاليهود والنصارى والمجوس وعبدة الأوثان وسائر أهل الأديان الباطلة مما عدا أهل الإسلام كما قال تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٥٩] الآية فأهل الأديان قبلنا اختلفوا فيما بينهم على آراء ومثل باطلة. وكل فرقة منهم تزعم أنهم على شيء وهذه الأمة أيضاً اختلفوا فيما بينهم على نحل كلها ضلاله إلا واحدة وهم أهل السنة والجماعة المتمسكون بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وبما كان عليه الصدر الأول من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين من قديم

(١) التحوير والتنوير،(١٤/ ٣٢٤٧).
(٢) الروم: ٣٢.

الدهر وحديثه كما رواه الحاكم في مستدركه أنه سئل صلى الله عليه وسلم عن الفرقة الناجية[1] منهم فقال "من كان على ما أنا عليه اليوم وأصحابي".

أسباب نشأة الفرق

أولاً :التفرق في عصرنا الحاضر :

تَنَكر للإسلام كثير ممن يتظاهر به، ويزعم أنه يسير على نهجه، وتربوا على مائدة الكفرة ودرسوا في مدارسهم، وأتقنوا مناهجهم ثم أظهروا أنفسهم أبطالاً فاتحين، واتخذوا لأنفسهم شعارات براقة خادعة وهم ما بين ثوري اشتراكي شيوعي، أو بعثي زنديق حاقد، أو رأسمالي جشع حقود حسود، أو ماسوني إينما يوجه لا يأتي بخير، فابتلي المسلمون بهم أشد البلاء، وتوالت عليهم المحن، وظهر الإلحاد، وتفرقت بسببهم الكلمة وظهر قرن الشر، وفشت الدعارة علانية وصار المتمسكون بدينهم غرباء.

وقد جنَّدوا كل وسيلة من مجلة، وكتاب وتليفزيون، وفضائيات، وأنترنت، وإذاعة، وإعلانات في الشوارع، وندوات في المجالس ونثر ونظم، وتمثليات وفكاهات، لتحقيق مآربهم، فأصبح الكثير من شباب الأمة الإسلامية إلا من رحم الله عقولهم معهم وأيديهم تكتب عنهم وتمجدهم وأرجلهم تمشي إلى مجالسهم، وألسنتهم تنطق بدعاياتهم وأكاذيبهم وحيلهم، وكان ثمرة ذلك كله تفرق الكلمة وتشتت الآراء تحت غطاء الإصلاح والتطوير والتجديد وغيرها من الشعارات الكاذبة، كل ذلك لتحقيق هدف واحد هو محاربة التدين

(١) اختلف العلماء في المراد بهم على أقوال: ١- قيل إنها السواد الأعظم من أهل الإسلام.٢- وقيل هم العلماء المجتهدون الذين قال فيهم رسول الله: " لن تجتمع أمتي على ضلالة "أي: لن يجتمع علماء أمتي على ضلالة وخصهم شيخ الإسلام بعلماء الحديث والسنة. ٣- أنهم جماعة غير معروف عددهم ولا تديد بلدانهم أخبر عنهم النبي - صلى الله عليه وسلم - بإخبار الله له أنهم على الحق حتى يأتي أمر الله ولعل هذا هو الراجح من تلك الأقوال. ٤- أنهم خصوص أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - الذين قال فيهم الرسول في رواية " ما أنا عليه اليوم وأصحابي ٥- أنهم جماعة المسلمين إذا اجتمعوا على أمير (انظر: الاعتصام بتصرف،ج٢، ص٢٦٠ -٢٦٤).

والعادات الإسلامية وتفكيك الروابط المتينة التي بناها الإسلام والتي تقف دون رغباتهم الجنسية والاجتماعية والسياسية والثقافية.

ورفع هؤلاء شعار " فرق تسد" لقطع أوصال الأمة وإلقاء بذور الشقاق بينهم وألصقوا التهم بأهل الحق لتشويه سمعتهم، وتجفيف منابع الخير، ووصف الإسلام والمسلمين بالإرهاب.

وقد غذوا التفرق بالتأويلات الفاسدة فظهرت العصبيات البغيضة والقوميات المتصارعة والرغبة في السيطرة والزعامة وتفاوتت المفاهيم فظهرت المذاهب الفكرية للفرق المختلفة من خوارج ومعتزلة وقدرية ومرجئة وشيعة .. وظهر الغلو الممقوت نتيجة لتمجيد كل طائفة لآرائها ولرجالها وقويت الرغبة لدى كل طائفة للاستقلال بأتباعها "(١).

ثانياً: الأسباب عامة للتفرق:

١- وجود علماء انحرفت عقائدهم.على رأس كل طائفة منهم مردة أسهموا في تثبيت الفرقة بين المسلمين مثل الصوفية والباطنية.

٢- غلبة الجهل وفشوه بين أوساط المسلمين في مختلف العصور، وقد نشأ عن الجهل الغلو يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: " ثم إن الغلو في الأنبياء والصالحين قد وقع في طوائف من ضلال المتعبدة والمتصوفة ..حتى خالطوا كثيراً منهم من مذاهب الحلول والاتحاد ما هو أقبح من قول النصارى، أو مثله أو دونه ".

٣- عدم فهم النصوص فهماً سليماً: حتى وإن كانت النية ربما تكون حسنة عند البعض منهم.

٤- موافقة الخلاف والفرقة لهوى في النفوس فأصروا عليه.

٥- تدخل سلطان العصبية البغيضة وهذه " ظاهرة ذميمة لا تؤدي إلا إلى التفرقة والتعادي .. وثمرة التعصب الاختلاف والفرقة والتباغض ".

---

(١) فرق معاصرة تنتسب للإسلام، د.غالب بن علي عواجي،ج١/ ٤٣-٤٦ باختصار، مكتبة لينة للطبع والنشر، طبعة أولى،سنة ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

٦- استحكام قوة الحسد في النفوس.

٧- الرغبة في إحياء البدع والخرافات وميل الكثير من النفوس إليها.

٨- تقديس العقل وتقديمه على النقل.

٩- بث الدعايات المنفرة عن الاعتقاد الصحيح الموافق للكتاب والسنة الذي يمثله السلف الصالح.

١٠- وجود تأثيرات خارجية تكمن في الأمور التالية :

- في اختلاط المسلمين بغيرهم، ودخول غير المسلمين في الإسلام وإصرارهم متعمدين وغير متعمدين على التمسك ببعض الأفكار التي كانوا عليها قبل دخولهم في الإسلام.

- وجود حركة ثقافية وترجمات لبعض الكتب تحتوي على بعض الأفكار الغربية أخذت حيزاً من تفكير المسلمين مثل كتب الملاحدة والماديين.

- دخول كثير من الناس في الإسلام ظاهراً وهم يبيتون النية لهدمه وزعزعته في صدور أهله وأكثر هذا الصنف هم اليهود والنصارى قال شيخ الإسلام ابن تيمية عن تأثر المسلمين بغيرهم من الأمم السابقة خصوصاً الفرس والروم : " وأما مشابهة فارس والروم فقد دخل منه في هذه الأمة من الآثار الرومية قولاً وعملاً والآثار الفارسية قولاً وعملاً ما لا خفاء فيه على مؤمن عليم بدين الإسلام وبما حدث فيه "[(١)].

وعن تأثر المسلمين بالنصرانية : " فمن المفاهيم النصرانية التي تسربت إلى عقول طوائف من المسلمين، وأدى بهم إلى الصوفية هي نظرة النصارى إلى الدنيا واحتقارهم الكامل لها في ظاهر الأمر "

وعن أثر اليهودية في المسلمين، يظهر من خلال شخصية عبد الله بن سبأ والأفكار التي روجها من القول بالرجعة والوصية وغيرها من الأفكار التي ابتدعها[(٢)] ".

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم، ص ١١.

(٢) مقدمة في أسباب اختلاف المسلمين وتفرقهم، طارق عبد الحكيم، ص ١٢٩.

المبحث الخامس
فرح البَطَر والأشر

﴿ذَالِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾﴾[١].

أي تقول لهم الملائكة هذا الذي أنتم فيه جزاء على فرحكم في الدنيا بغير الحق ومرحكم وأشركم وبطركم.

سنة الله [٢] في بطر النعمة :

١- عقوبة البطرين بالجوع والخوف :

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾[٣]. جعل الله هذه القرية مثلاً لكل قوم أنعم الله - تعالى - عليهم بنعمة الأمن والرزق الوفير الواسع فأبطرتهم هذه النعمة فلم يقدروها حق قدرها ولم يشكروا الله عليها ولم يقوموا بحقها فأنزل الله فيهم نعمته، فليحذر غيرهم أن يفعلوا فعل أهل هذه القرية التي ضربها الله مثلاً لئلا يصيبهم ما أصابهم.

٢- إهلاك البطرين وتخريب ديارهم :

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾[٤]. فكم من قرية بطروا واغتروا ولم يقوموا بحق النعمة ولم يشكروا الله عليها فدمرهم الله تعالى وخرب ديارهم، فليعتبر كل قوم أن يصيبهم مثل ما أصاب أولئك إذا فعلوا فعلهم في بطر النعمة.

٣- إهلاك زروع البطرين وثمارهم :

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ

---

(١) غافر: ٧٥.

(٢) سنة الله: هي الطريقة المتبعة في معاملة الله تعالى للبشر بناء على سلوكهم وأفعالهم وموقفهم من شرع الله وأنبيائه وما يترتب على ذلك من نتائج في الدنيا والآخرة.(السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، د. عبد الكريم زيدان).

(٣) النحل، آية ١١٢.

(٤) القصص، الآية ٥٨.

وَٱشْكُرُواْ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾[1].

نزلت في أهل سبأ وكان من أخبارهم أنهم كانوا في نعمة وغبطة في بلادهم وعيشهم واتساع أرزاقهم وزروعهم وثمارهم وبعث الله تبارك وتعالى إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه ويشكروه بتوحيده وعبادته فكانوا كذلك ما شاء الله تعالى ثم أعرضوا عما أمروا به فعوقبوا بإرسال السيل والتفرق في البلاد. وبين الله أن ما حل بهم من العقاب إنما هو جزاء كفرانهم النعمة التي أنعم الله بها عليهم وهل يعاقب إلا الكفور بنعمة الله تعالى ؟

وقال تعالى :

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾﴾[2].

"هذا إنكار على الإنسان من حيث هو إلا من عصمه الله ووفقه فإن الإنسان إذا أصابته نعمة بطر". وقال: ﴿ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود: ١٠] أي يفرح في نفسه ويفخر على غيره وإذا أصابه شدة قنط وأيس أن يحصل له بعد ذلك خير بالكية. قال الله تعالى ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [هود: ١١] أي صبروا في الضراء وعملوا الصالحات في الرخاء كما ثبت في الصحيح "عجبا للمؤمن لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيرا له إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له".

المبحث السادس

فرح الكافرين بالعلم الفاسد الذي يقود إلى الجهالة

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ

(١) سورة سبأ، (الآيات، ١٥- ١٧).
(٢) الروم: ٣٦.

بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾﴾[(١)]

وذلك لأنهم لما جاءتهم الرسل بالبينات والحجج القاطعات والبراهين الدامغات لم يلتفتوا إليهم ولا أقبلوا عليهم واستغنوا بما عندهم من العلم في زعمهم عما جاءتهم به الرسل قال مجاهد قالوا نحن أعلم منهم لن نبعث ولن نعذب وقال السدي فرحوا بما عندهم من العلم بجهالتهم فأتاهم من بأس الله تعالى ما لا قبل لهم به ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أي أحاط بهم ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي يكذبون ويستبعدون وقوعه.

آفة العلماء إذا آثروا الدنيا واتبعوا الرياسات والشهوات

لقد شبه الله - سبحانه - علماء السوء باثنين من الحيوانات في صورة مزرية :

الصورة الأولى : تشبيههم بالكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث :

وفي هذا قال تعالى : ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٦].

فهذا مثل عالم السوء الذي يعمل بخلاف علمه.

وتأمل ما تضمنته هذه الآية من ذمه، وذلك من وجوه :

أحدها : أنه ضل بعد العلم، واختار الكفر على الإيمان ؛ عمداً لا جهلاً.

وثانيها : أنه فارق الإيمان مفارقة مَن لا يعود إليه أبداً ؛ فإنه انسلخ من الآيات بالجملة، كما تنسلخ الحية من قشرها، ولو بقي معه منها شئ لم ينسلخ منها.

وثالثها : أن الشيطان أدركه ولحقه بحيث ظفر به وافترسه، ولهذا قال :

(١) غافر: ٨٣.

" ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾، ولم يقل تبعه، فإن في معنى أتبعه أدركه ولحقه، وهو أباغ من تبعه لفظاً ومعنى.

ورابعها : أنه غوى بعد الرشد. والغي : الضلال في العلم والقصد، وهو أخص بفساد القصد والعمل، كما أن الضلال أخص بفساد العلم والاعتقاد.فإذا أفد أحدهما دخل فيه الآخر وإن اقترنا فالفرق ما ذكر.

وخامسها : أن سبحانه لم يشأ أن يرفعه بالعلم، فكان سبب هلاكه لأنه لم يرفع به، فصار وبالاً عليه.فلو لم يكن عالماً كان خيراً له وأخف لعذابه.

وسادسها : أنه سبحانه أخبر عن خِسّة هِمتِه، وأنه اختار الأسفل الأدنى على الأشرف الأعلى.

وسابعها : أن اختياره للأدنى لم يكن عن خاطر وحديث نفس، ولكنه كان عن إخلاد إلى الأرض، وميل بكليته إلى ما هناك. وأصل الإخلاد : اللزوم على الدوام، كأنه قيل : لزم الميل إلى الأرض، ومن هذا يقال : أخلد فلان بالمكان إذا لزم الإقامة به، قال مالك بن نويرة :

بـأبـنـاء حَـيٍّ مـن قـبـائـل مـالـك

وعمرو بن يربوع أقاموا فأخلدوا. وعبر عن ميله إلى الدنيا بإخلاده إلى الأرض، لأن الدنيا هي الأرض وما فيها وما يستخرج منها من الزينة والمتاع.

وثامنها : أنه رغب عن هداه واتبع هواه، فجعل هواه إماماً له يقتدي به ويتبعه.

وتاسعها : أنه شبَّه بالكلب، الذي أخسّ الحيوانات هِمة، وأسقطها نفساً، وأبخلها وأشدها كلباً ولهذا سمي كلباً.

وعاشرها :أنه شبه لهثه على الدنيا، وعدم صبره عنها، وجزعه لفقدها وحرصه على تحصيلها، بلهث الكلب في حالتي تركه والحمل عليه بالطرد، وهكذا .. هذا إن ترك فهو لهثان على الدنيا، وإن وعظ وزجر فهو كذلك فاللهث لا يفارقه في كل حال كلهث الكلب.

قال ابن قتيبة : " كل شيء يلهث، فإنما يلهث من إعياء أو عطش إلا

الكلب، فإنه يلهث في حال الكلال [١]، وحال الراحة، وحال الريّ، وحال العطش، فضربه الله مثلاً لهذا الكافر فقال: إن وعظته فهو ضال، وإن تركته فهو ضال، كالكلب إن طردته لهث، وإن تركته على حاله لهث. وهذا التمثيل لم يقع بكل كلب، وإنما وقع بالكلب اللاهث، وذلك أخس ما يكون وأشنعه " [٢].

الصورة الثانية: تشبيههم بالحمار يحمل أسفارا:

قال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًاۢ﴾ [٣].

" قاس من حمَّله سبحانه كتابه ليؤمن به، ويتدبره، ويعمل به، ويدعو إليه، ثم خالف ذلك ولم يحمله إلا على ظهر قلب، فقرأه بغير تدبر، ولا تفهم، ولا اتباع له، ولا تحكيم له، ولا عمل بموجبه: كحمار على ظهره زاملة أسفار لا يدري ما فيها، فحظه منها: حملها على ظهره ليس إلا. فحظ هذا من كتاب الله كحظ الحمار من الكتب التي على ظهره.

فهذا المثل وإن كان ضرب لليهود، فهو متناول من حيث المعنى لمن حمل القرآن فترك العمل به، ولم يؤد حقه ولم يرعه حق رعايته [٤].

قال الإمام ابن القيم: "علماء السوء جلسوا على باب الجنة، يدعون إليها الناس بأقوالهم ويدعونهم إلى النار بأفعالهم، فكلما قالت أقولهم للناس: هلموا قالت أفعالهم: لا تسمعوا منهم.فلو كان ما دعوا إليه حقاً كانوا أول المستجيبين له، فهم في الصورة أدلاء وفي الحقيقة قُطاع طريق". [٥]

و" ما أكثر الذين يعطون علم دين الله، ثم لا يهتدون به، إنما يتخذون

---

(١) أي التعب.

(٢) الفوائد،ابن القيم،تحقيق محمد عثمان الخشت، ص ١٥١-١٥٢.

(٣) سورة الجمعة، الآية: ٥.

(٤) التفسير القيم للإمام ابن القيم،جمع محمد أويس الندوي، حققه محمد حامد الفقي، ص ٤٩٣، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان.

(٥) الفوائد،ابن القيم،تحقيق محمد عثمان الخشت، ص ٩٤، الطبعة الرابعة،عام ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، دار الكتاب العربي.

هذا العلم وسيلة لتحريف الكلم عن مواضعه، واتباع الهوى به .. هواهم وهوى المتسلطين الذين يملكون لهم - في وهمهم - عرض الحياة الدنيا. وكم من عالم دين رأيناه يعلم حقيقة دين الله ثم يزيغ عنها. ويعلن غيرها. ويستخدم علمه في التحريفات المقصودة، والفتاوى المطلوبة لسلطان الأرض الزائل ! يحاول أن يثبت بها هذا السلطان المعتدي على سلطان الله وحرماته جميعاً !

لقد رأينا من هؤلاء من يعلم ويقول : إن التشريع حق من حقوق الله - سبحانه - من ادعاه فقد ادعى الألوهية. ومن ادعى الألوهية فقد كفر. ومن أقر له بهذا الحق وتابعه فقد كفر أيضاً ! .. ومع ذلك .. مع علمه بهذه الحقيقة، التي يعلمها من الدين بالضرورة، فإنه يدعو للطواغيت الذين يدّعون حق التشريع، ويدّعون الألوهية بادعاء هذا الحق ..ممن حكم عليهم هو بالكفر! ويسميهم "المسلمين" ! ويسمى ما يزالونه إسلاماً لا إسلام بعده ! .. ولقد رأينا من هؤلاء من يكتب في تحريم الربا كله عاماً، ثم يكتب في حله كذلك عاماً آخر .. ورأينا منهم من يبارك الفجور وإشاعة الفاحشة بين الناس ويخلع على هذا الوحل رداء الدين وشاراته وعناوينه ..

إنه لتمر فترات كثيرة، وما تكاد العين تقع على عالم إلا وهذا مثله.فيما عدا الندرة النادرة ممن عصم الله، ممن لا ينسلخون من آيات الله، ولا يخلدون إلى الأرض، ولا يتبعون الهوى، ولا يستذلهم الشيطان، ولا يلهثون وراء الحطام الذي يملكه أصحاب السلطان ! فهو مثل لا ينقطع وروده ووجوده وما هو محصور في قصة وقعت في جيل من الزمان ![1].

المبحث السابع

فرح الاختيال والفخر

﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾[2].

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (ج٣/ ١٣٩٧- ١٣٩٨).

(٢) الحديد: ٢٣.

" أي أعلمناكم بتقدم علمنا وسبق كتابتنا للأشياء قبل كونها وتقديرنا الكائنات قبل وجودها لتعلموا أن ما أصابكم لم يكن ليخطئكم وما أخطأكم لم يكن ليصيبكم فلا تأسوا على ما فاتكم لأنه لو قدر شيء لكان ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَآ ءَاتَىٰكُمْۗ﴾ أي جاءكم وتفسير﴿ءَاتَىٰكُمْۗ﴾ أي أعطاكم وكلاهما متلازم أي لا تفخروا على الناس بما أنعم الله به عليكم فإن ذلك ليس بسعيكم ولا كدكم وإنما هو عن قدر الله ورزقه لكم فلا تتخذوا نعم الله أشرا وبطرا تفخرون بها على الناس ولهذا قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ أي مختال في نفسه متكبر﴿فَخُورٍ﴾ أي على غيره وقال عكرمة ليس أحد إلا وهو يفرح ويحزن ولكن اجعلوا الفرح شكراً والحزن صبراً.

قال الشيخ السعدي : " أخبر الله عباده بذلك لأجل أن تتقرر هذه القاعدة عندهم، ويبنوا عليها ما أصابهم من الخير والشر.فلا يأسوا ويحزنوا على ما فاتهم، مما طمحت له أنفسهم، وتشوفوا إليه لعلمهم أن ذلك مكتوب في اللوح المحفوظ، لابد من نفوذه ووقوعه، فلا سبيل إلى دفعه، ولا يفرحوا بما آتاهم الله فرح بَطَر وأشر لعلمهم أنهم ما أدركوه بحولهم وقوتهم، وإنما أدركوه بفضل الله ومَنِّه، فيشتغلوا بشكر من أولى النعم ودفع النقم ولهذا قال :﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ أي متكبر فظ، معجب بنفسه فخور بنعم الله ينسبها إلى نفسه وتطغيه وتلهيه كما قال تعالى : " و﴿إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ﴾ [الزُّمَر: ٤٩][(١)].

قال القرطبي : "والحزن والفرح المنهي عنهما هما اللذان يتعدى فيهما إلى ما لا يجوز".

قال جعفر بن محمد الصادق: يا ابن آدم ما لك تأسى على مفقود لا يرده عليك الفوت، أو تفرح بموجود لا يتركه في يديك الموت.

وقال الفضيل بن عياض في هذا المعنى: الدنيا مبيد ومفيد، فما أباد فلا رجعة له، وما أفاد آذن بالرحيل.

---

(١) تفسير السعدي، عبد الرحمن بن ناصر آل سعدي، ص١٠١٤.

قال القرطبي :

"المختال الذي ينظر إلى نفسه بعين الافتخار، والفخور الذي ينظر إلى الناس بعين الاحتقار، وكلاهما شرك خفي.

والفخور بمنزلة المصراة تشد أخلافها ليجتمع فيها اللبن، فيتوهم المشتري أن ذلك معتاد وليس كذلك، فكذلك الذي يرى من نفسه حالا وزينة وهو مع ذلك مدع فهو الفخور، أي متكبر بما أوتي من الدنيا، فخور به على الناس".

وقال ابن كثير : ﴿كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا﴾ [الانشقاق: ١٣] أي فرحاً لا يُفكر في العواقب، ولا يخاف مما أمامه، فأعقبه ذلك الفرح اليسير الحزن الطويل.

المبحث الثامن

فرح الكفار بما أوتوا في الدنيا (قانون الاستدراج)

﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾[١].

" قال مكر بالقوم ورب الكعبة أعطوا حاجتهم ثم أخذوا رواه ابن أبي حاتم"[٢].

وقال قتادة: بغت القوم أمر الله وما أخذ الله قوما قط إلا عند سكرتهم وغرتهم ونعمتهم فلا تغتروا بالله فإنه لا يغتر بالله إلا القوم الفاسقون رواه ابن أبي حاتم.

وقال مالك عن الزهري ﴿فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ﴾ قال أرجاء الدنيا وسترها.

---

(١) الأنعام: ٤٤.

(٢) هو أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم التميمي الحنظلي، الإمام الثبت ابن الإمام الثبت حافظ الرَّي، أخذ علم أبيه وأبي زرعة، من تصانيفه: " التفسير المسند" وكتاب " الجرح والتعديل "و" كتاب " الزهد " و" العلل". مات سنة سبع وعشرين وثلاثمائة.(طبقات المفسرين، للداوودي، ج١/ ٢٨٥ وما بعدها).

وقد قال الإمام أحمد: عن عقبة بن عامر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم "فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون".

وعن عبادة بن الصامت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول "إذا أراد الله بقوم بقاء أو نماء رزقهم القصد والعفاف وإذا أراد الله بقوم اقتطاعا فتح لهم أو فتح عليهم باب خيانة" "حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون".كما قال "فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين" ورواه أحمد وغيره.

" إن النفس تفرح بالتنعم في الدنيا وتركن إليها وتطمئن إليها أشراً وبطراً حتى تصير ثملة كالسكران الذي لا يفيق من سكره. وذلك الفرح بالدنيا سم قاتل يسري في العروق فيخرج من القلب الخوف والحزن وذكر الموت وأهوال يوم القيامة، وهذا هو موت القلب. قال الله تعالى: ﴿وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا﴾ [يونس: ٧] وقال تعالى ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ﴾ [آل عمران: ١٨٥] وقال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ﴾ [الحديد: ٢٠] وكل ذلك ذم لها فنسأل الله السلامة"(١).

"إن النفس المنحرفة تبطرها القوة فلا تذكر، وتعميها النعمة فلا تنظر. وما تنفع عظات الماضي ولا غيره إلا من تتفتح بصائرهم لإدراك سنة الله التي لا تتخلف ولا تتوقف، ولا تحابي أحداً من الناس. وإن كثيراً ممن يبتليهم الله بالقوة وبالنعمة لتغشى أبصارهم وبصائرهم غشاوة، فلا يبصرون مصارع الأقوياء قبلهم ولا يستشعرون مصير البغاة الطغاة من الغابرين. عندئذ تحق عليهم كلمة الله، وعندئذ تجري فيهم سنة الله، وعندئذ يأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر. وهم في نعمائهم يتقلبون، وبقوتهم يتخايلون. والله من ورائهم محيط.

---

(١) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، ص: ٧٦٧.

إنها الغفلة والعمى والجهالة نراها تصاحب القوة والنعمة والرخاء، نراها في كل زمان وفي كل مكان إلا من رحم الله من عباده المخلصين "[1].

قال سيد قطب: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ﴾ [الأنعام: ٤٤] وغمرتهم الخيرات والأرزاق المتدفقة، واستغرقوا في المتاع بها والفرح بها بلا شكر ولا ذكر وخلت قلوبهم من الاختلاج بذكر المنعم ومن خشيته وتقواه وانحصرت اهتماماتهم في لذائذ المتاع واستسلموا للشهوات، وخلت حياتهم من الاهتمامات الكبيرة كما هي عادة المستغرقين في اللهو والمتاع. وتبع ذلك فساد النظم والأوضاع، بعد فساد القلوب والأخلاق وجر هذا وذلك إلى نتائجه الطبيعية من فساد الحياة كلها .. عندئذ جاء موعد السنة التي لا تتبدل ﴿أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤]. فكان أخذهم على غرة، وهم في سهوة وسكرة فإذا هم حائرون منقطعوا الرجاء في النجاة عاجزون عن التفكير في أي اتجاه وإذا هم مهلكون بجملتهم حتى آخر واحد منهم ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ [الأنعام: ٤٥]. ودابر القوم هو آخر واحد منهم يدبرهم: أي يجيء على أدبارهم فإذا قطع هذا فأوائلهم أولى !

والحمد لله رب العالمين " تعقيب على استئصال الظالمين (المشركين) بعد هذا الاستدراج الإلهي والكيد المتين " .[2].

قال تعالى :

﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾﴾[3].

" يذكر تعالى أنه هو الذي يوسع الرزق على من يشاء ويقتر على من يشاء لما له في ذلك من الحكمة والعدل وفرح هؤلاء الكفار بما أوتوا من الحياة الدنيا استدراجا لهم وإمهالا ".

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٣/ ١٦٧٤ -١٦٧٥).

(٢) الظلال، (٢/ ١٠٩١).

(٣) الرعد: ٢٦.

قال القرطبي :

"بسط الرزق على الكافر لا يدل على كرامته، والتقتير على بعض المؤمنين لا يدل على إهانتهم".

وجوب حمد الله - عز وجل - على هلاك الكفار :

قال الآلوسي : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفَاتِحَة: ٢] على ما جرى عليهم من النكال والإهلاك فإن إهلاك الكفار والعصاة من حيث تخليص لأهل الأرض من شؤم عقائدهم الفاسدة وأعمالهم الخبيثة نعمة جليلة يحق أن يُحمد عليها[١].

وقال الشيخ رشيد رضا : " الحمد لله رب العالمين : أي الثناء الحسن في ذلك الذي جرى من نصر الله تعالى لرسله بإظهار حججهم، وتصديق نذرهم، وإهلاك المشركين الظالمين، وإراحة الأرض من شركهم وظلمهم - ثابت ومستحق لله رب العالمين المدبر لأمورهم، المقيم لأمر اجتماعهم، بحكمته البالغة، وسننه العادلة. فهذه الجملة بيان للحق الواقع من كون الحمد والثناء على ذلك مستحق لله تعالى وحده، وإرشاد لعباده المؤمنين، يذكرهم بما يجب عليهم من حمده على نصر المرسلين المصلحين وقطع دابر الظالمين المفسدين، وحمده في عاقبة كل أمر، وخاتمة كل عمل، كما قال في عباده المتقين :

﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٢].

وسواء كان ذلك الأمر الذي تم من السراء والضراء فإن للمتقين في كل منهما عبرة وفائدة ونعمة ظاهرة وباطنة[٣].

وقال صاحب الظلال : " وهل من نعمة أجل من نعمة تطهير الأرض من الظالمين، أو أي رحمة أجل من رحمته لعباده بهذا التطهير؟ "

---

(١) تفسير الآلوسي، (٧/ ١٥٢).
(٢) يونس: الآية ١٠.
(٣) تفسير المنار، محمد رشيد رضا، دار المعرفة - بيروت، لبنان، ص(٧/ ٤١٦).

لقد أخذ الله قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط، كما أخذ الفراعنة والأغريق والرومان وغيرهم بهذه السنة، ووراء ازدهار حضاراتهم ثم تدميرها، ذلك هو السر المغيب من قدر الله، وهذا القدر الظاهر من سنته، وهذا التفسير الرباني لهذا الواقع التاريخي المعروف.

ولقد كان بهذه الأمم من الحضارة، وكان لها من التمكين في الأرض من الرخاء والمتاع ما لا يقل - إن لم يزد في بعض نواحيه - عما تتمتع به اليوم أمم، مستغرقة في السلطان والرخاء والمتاع، مخدوعة بما هي فيه، خادعة لغيرها ممن لا يعرفون سنة الله في الشدة والرخاء.

هذه الأمم لا تدرك أن هناك سنة ولا تشعر أن الله يستدرجها وفقه هذه السنة والذين يدورون في فلكها يبهرهم اللألاء الخاطف، ويتعاظمهم الرخاء والسلطان، ويخدعهم إملاء الله لهذه الأمم، وهي لا تعبد الله أو لا تعرفه وهي تتمرد على سلطانه، وهي تدعي لأنفسها خصائص ألوهيته، وهي تعيث في الأرض فساداً، وهي تظلم الناس بعد اعتدائها على سلطان الله. وصدق رسول الله - ﷺ - قال : إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب. فإنما هو استدراج ثم تلا ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾[(١)].

قال ابن عاشور : " والحمد لله رب العالمين : **المراد منها اعتبارات ثلاثة:**

أحدها : أن تكون تلقينا للرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين أن يحمدوا الله على نصره رسله وأولياءهم وإهلاك الظالمين، لأن ذلك النصر نعمة بإزالة فساد كان في الأرض، ولأن في تذكير الله الناس به إيماء إلى ترقب الأسوة بما حصل لمن قبلهم أن يترقبوا نصر الله كما نصر المؤمنين من قبلهم.

ثانيها : أن يكون (الحمد لله) : كناية عن كون ما ذكر قبله نعمة من نعم الله تعالى لأن من لوازم الحمد أن يكون على نعمة، فكأنه قيل: فقطع دابر

---

(١) الظلال،(٢/١٠٩٢).

القوم الذين ظلموا. وتلك نعمة من نعم الله تقتضي حمده.

ثالثها: أن يكون إنشاء حمد الله تعالى من قبل جلاله مستعملا في التعجيب من معاملة الله تعالى إياهم وتدريجهم في درجات الإمهال إلى أن حق عليهم العذاب.

ويجوز أن يكون إنشاء الله تعالى ثناء على نفسه، تعريضا بالامتنان على الرسول والمسلمين.

وفي ذلك كله تنبيه على أنه يحق الحمد لله عند هلاك الظلمة، لأن هلاكهم صلاح للناس، والصلاح أعظم النعم، وشكر النعمة واجب. وهذا الحمد شكر لأنه مقابل نعمة. وإنما كان هلاكهم صلاحا لأن الظلم تغيير للحقوق وإبطال للعمل بالشريعة، فإذا تغير الحق والصلاح جاء الدمار والفوضى وافتتن الناس في حياتهم فإذا هلك الظالمون عاد العدل، وهو ميزان قوام العالم(١).

المبحث التاسع
سنة الله في تدمير الباطل

إن سنة الله - عز وجل - في تدمير الباطل تتضح لنا من خلال حقيقتين :

الحقيقة الأولى : جهد بشري - من الفئة المؤمنة - في حدود الطاقة البشرية، والواقع المادي الملوس.

الحقيقة الثانية :عون الله - عز وجل - للفئة المؤمنة بعد بذل الجهد واستفراغ ما في الطاقة والوسع.

وهذا ما أشارت إليه الآيات :

١- فالجهد البشري توضحه : ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا﴾. **وعون الله** : توضحه : ﴿لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾(٢).

---

(١) السابق،(٦/ ١٢٩٤).

(٢) سورة العنكبوت، الآية ٦٩.

أي : الذين يعملون بما يعلمون يهديهم الله لما لا يعلمون.

٢- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١][١].

وإذا توفرت هاتان الحقيقتان في نفوس وواقع الفئة المؤمنة تحققت سنة الله :

كما قال تعالى :﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾[٢].

" ولقد يخيل للناس أحياناً أن واقع الحياة يخالف هذه الحقيقة التي يقررها العليم الخبير. وذلك في الفترات التي يبدو فيها الباطل منتفشاً أنه غالب ويبدو فيها الحق منزوياً - كما يحدث في واقع المسلمين اليوم - كأنه مغلوب إن هي إلا فترة من الزمان يمد الله فيها ما يشاء، للفتنة والابتلاء. ثم يجري السنة الأزلية الباقية التي قام عليها بناء السماء والأرض وقامت عليها العقائد والدعوات سواء بسواء".

والمؤمنون بالله لا يخالجهم الشك في صدق وعد الله - عز وجل - وفي أصالة الحق في بناء الوجود ونظامه، وفي نصرة الحق الذي يقذف به على الباطل فيدمغه، فإذا ابتلاهم الله بغلبة الباطل حيناً من الدهر عرفوا أنها الفتنة وأدركوا أنه الابتلاء، وأحسوا أن ربهم يربيهم، لأن فيهم ضعفاً أو نقصاً وهو يريد أن يعدهم لاستقبال الحق المنتصر، وإن يجعلهم ستار القدرة فيدعهم يجتازون فترة، يستكملون فيها النقص ويعالجون فيها الضعف وكلما سارعوا إلى العلاج قصَّر الله - عز وجل - عليهم فترة الابتلاء، وحقق على أيديهم ما يشاء، أما العاقبة فهي مقررة : ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨][٣].

ضرورة وجود الحق في صورة أمة :

"سنة الله في تدمير الباطل أن يقوم في الأرض (حق) يتمثل في أمة[٤] ..

---

(١) سورة الرعد، الآية: ١١. (٢) سورة الأنبياء، الآية: ١٨.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب،(ج٤/ ٢٣٧٢).

(٤) الأمة: جماعة يتخيّرون العلم والعمل الصالح يكون أمة لغيرهم (الراغب٨٦،). قال ابن =

ثم يقذف الله بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق .. فلا يقعدن أهل الحق كسالى يرتقبون أن تجري سنة الله بلا عمل منهم ولا كد فإنهم حينئذ لا يمثلون الحق، ولا يكونون أهله .. وهم كسالى قاعدون .. والحق لا يتمثل إلا في أمة تقوم لتقر حاكمية الله في الأرض، وتدفع المغتصبين لها من الذين يدعون خصائص الألوهية .. هذا هو الحق الأول والحق الأصيل. ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض"(١).

وهذا المفهوم هو ما أشار إليه القرآن الكريم في آياته حيث قال تعالى :

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾(٢).

وقال تعالى :

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾(٣).

" إن قيام هذه الجماعة ضرورة من ضرورات المنهج الإلهي ذاته فهذه الجماعة هي الوسط الذي يتنفس فيه هذا المنهج ويتحقق في صورته الواقعية. وهو الوسط الخير المتكافل المتعاون على دعوة الخير. المعروف فيه هو الخير والفضيلة والحق والعدل. والمنكر فيه هو الشر والرذيلة والباطل والظلم. والعدل فيه أنفع من الظلم. فاعل الخير فيه يجد على الخير أعواناً. وصانع الشر فيه يجد مقاومة وخذلاناً. ومن هنا قيمة هذا التجمع إنه البيئة التي ينمو فيها

= عاشور: " أصل الأمة في كلام العرب: " الطائفة من الناس التي تؤم قصداً واحداً من نسب أو موطن أو دين أو مجموع ذلك (ابن عاشور٣، ٤، ٥، / ٣٧). ويقول سيد قطب: " هي الجماعة التي تنتسب إلى عقيدة واحدة من كل جنس ومن كل أرض، وليست هي الجماعة التي تنتسب إلى جنس واحداً أو أرض واحدة ".(الظلال، (١/ ١١١).

(١) الظلال، (٢/ ١٠٩٢).

(٢) سورة آل عمران، آية ١٠٤.

(٣) سورة آل عمران، آية ١١٠.

الخير والحق بلا كبير جهد، لأن كل ما حوله وكل من حوله يعاونه. والتي لا ينمو فيها الشر والباطل إلا بعسر ومشقة، لأن كل ما حوله يعارضه ويقاومه "

التنظيم الجماعي لنصرة دين الله :

وهذا يعني أن ضم جهود الأفراد بعضها إلى بعض والعمل سوية بتنظيم جماعي يحقق من النتائج ما لا يحققه العمل الفردي، ومعنى ذلك أن العمل الجماعي المنظم مما يحبه الله ويطلبه الإسلام لأن الله يأمر بالتعاون قال تعالى : ﴿عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾(١). ومن أعظم البر التعاون على نصرة الدين.

وعلى ذلك فمدافعة الباطل وأهله - كما هو الحال في الوقت الحاضر - لا تتأتى بجهود فردية بل بجهود من أهل الحق مجتمعة بحيث تكون قوته أقوى من قوة أهل الباطل أو في الأقل مساوية لأهله، ولا يتأتى ذلك إلا إذا تجمعت جهود الغيارى على الإسلام في تنظيم واحد أي جماعة إسلامية واحدة تعمل نظام لنصرة الدين ومدافعة الباطل، وعلى المسلمين أن ينضموا إلى هذه الجماعة المسلمة إذا ما قامت لأنها هي حزب الله وأفرادها أولياء الله ولأنها تحقق أمر الله : ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾ [آل عِمرَان: ١٠٤].

إرادة الله للأمة الإسلامية قيادة الخير في الأرض :

وينبغي لهذه الأمة المسلمة أن تدرك : "أنها أُخرجت لتكون طليعة، ولتكون لها القيادة، بما أنها هي خير أمة. والله يريد أن تكون القيادة للخير لا للشر في هذه الأرض. ومن ثم لا ينبغي لها أن تتلقى من غيرها من أمم الجاهلية، إنما ينبغي دائماً أن تعطي هذه الأمم مما لديها. وأن يكون لديها دائماً ما تعطيه، من الاعتقاد الصحيح، والتصور الصحيح، والنظام الصحيح، والخلق الصحيح، والمعرفة الصحيحة، والعلم الصحيح .. هذا واجبها الذي يحتمه عليها مكانها، وتحتمه عليها غاية وجودها. واجبها أن تكون في الطليعة دائماً، وفي مركز القيادة دائماً. ولهذا المركز تبعاته، فهو لا يؤخذ ادعاء، ولا يسلم لها به إلا أن تكون هي أهلاً له .. وهي بتصورها الاعتقادي، وبنظامها

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٢.

الاجتماعي أهل له.فيبقى عليها أن تكون بتقدمها العلمي، وبعمارتها للأرض - قياماً بحق الخلافة - أهلاً له كذلك .. ومن هذا يتبين أن المنهج الذي تقوم عليه هذه الأمة يطالبها بالشيء الكثير، ويدفعها إلى السبق في كل مجال .. لو أنها تتبعه وتلتزم به، وتدرك مقتضياته وتكاليفه.

وأول مقتضيات هذا المكان، أن تقوم على صيانة الحياة من الشر والفساد .. وأن تكون لها القوة التي تمكنها من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهي خير أمة أخرجت للناس.لا عن مجاملة أو محابة، ولا عن مصادفة أو جزاف - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً - وليس توزيع الاختصاصات والكرامات كما كان أهل الكتاب يقولون " نحن أبناء الله وأحباؤه" ..كلا ! إنما هو العمل الإيجابي لحفظ الحياة البشرية من المنكر وإقامتها على المعروف، مع الإيمان الذي يحدد المعروف والمنكر .﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].فهو النهوض بتكاليف الأمة الخيرة بكل ما وراء ذلك من متاعب، وبكل ما طريقها من أشواك .. إنه التعرض للشر والتحريض على الخير وصيانة المجتمع من عوامل الفساد. وكل هذا متعب شاق، ولكنه كذلك ضروري لإقامة المجتمع الصالح وصيانته، ولتحقيق الصورة التي يحب الله أن تكون عليها الحياة. ولا بد من الإيمان بالله ليوضع الميزان الصحيح للقيم، والتعريف الصحيح للمعروف والمنكر، فإن اصطلاح الجماعة وحده لا يكفي.فقد يعم الفساد حتى تضطرب الموازين وتختل. ولا بد من الرجوع على تصور ثابت للخير والشر، وللفضيلة والرذيلة والمعروف والمنكر. يستند إلى قاعدة أخرى غير اصطلاح الناس في جيل من الأجيال.

وهذا ما يحققه الإيمان، بإقامة تصور صحيح للوجود وعلاقته بخالقه، وللإنسان وغاية وجوده ومركزه الحقيقي في هذا الكون .. ومن هذا التصور العام تنبثق القواعد الأخلاقية. ومن الباعث على إرضاء الله وتوقي غضبه يندفع الناس لتحقيق هذه القواعد. ومن سلطان الله في الضمائر، وسلطان شريعته في المجتمع تقوم الحراسة على هذه القواعد كذلك.

ثم لابد من الإيمان أيضاً ليملك الدعاة إلى الخير، الآمرون بالمعروف الناهون عن المنكر، أن يمضوا في هذا الطريق الشاق ويحتملوا تكاليفه. وهم يواجهون طاغوت الشر في عنفوانه وجبروته ويواجهون طاغوت الشهوة في عرامتها وشدتها، ويواجهون هبوط الأرواح، وكلل العزائم، وثقلة المطامع .. وزادهم هو الإيمان، وعدتهم هي الإيمان. وسندهم هو الله .. وكل زاد سوى الإيمان ينفد. وكل عدة سوى الإيمان تُفلّ وكل سند غير سند الله ينهار "[1].

المبحث العاشر

نماذج للفرحين البَطِرين الأشرين

أولاً : قارون :

﴿۞ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾[2].

كان قارون من بني إسرائيل، الذين فُضِّلوا على العالمين، وفاقوهم في زمانهم، وامتن الله عليهم بما امتنَّ به، فكانت حالهم مناسبة للاستقامة، ولكن قارون هذا انحرف عن سبيل قومه، ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ وطغى بما أوتيه من الأمور العظيمة المطغية، حتى أن مفاتح خزائن أمواله تثقل الجماعة القوية عن حملها هذه المفاتيح فما ظنك بالخزائن ؟

قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ يعني المرحين.

وقال مجاهد: يعني الأشرين البطرين الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم".

قال الزجاج: المعنى لا تفرح بالمال فإن الفرح بالمال لا يؤدي حقه.

وقال مبشر بن عبد الله: لا تفرح لا تفسد.

قال الشاعر:

إذا أنت لم تبرح تؤدي أمانة ... وتحمل أخرى أفرحتك الودائع.

---

(١) الظلال، (١/ ٤٤٢).

(٢) القصص: ٧٦.

أي أفسدتك.

قال صاحب الظلال : " لا تفرح .. فرح الزهو المنبعث من الاغترار بالمال، والاحتفال بالثراء، والتعلق بالكنوز والابتهاج بالملك والاستحواذ .. لا تفرح فرح البَطَر الذي ينسي المنعم بالمال، وينسي نعمته، وما يجب لها من الحمد والشكران. لا تفرح فرح الذي يستخفه المال، فيشغل به قلبه، ويطير له لبه، ويتطاول به على العباد . ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ ..فهم يردونه بذلك إلى الله الذي لا يحب الفرحين المأخذوين بالمال المتطاولين بسلطانه على الناس[١].

قال ابن عاشور : " والفرح المنهي عنه هو المفرط منه، أي الذي تمحض للتعلق بمتاع ولذات النفس به لأن الانكباب على ذلك يميت من النفس الاهتمام بالأعمال الصالحة والمنافسة لاكتسابها فينحدر به التوغل في الإقبال على اللذات إلى حضيض الإعراض عن الكمال النفساني والاهتمام بالآداب الدينية، فحذف المتعلق بالفعل لدلالة المقام على أن المعنى لا تفرح بلذات الدنيا معرضا عن الدين والعمل للآخرة كما أفصح عنه قوله : ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ [القصص: ٧٧].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾: أي المفرطين في الفرح، والمبالغة في الفرح تقتضي شدة الإقبال على ما يفرح به وهي تستلزم الإعراض عن غيره فصار النهي عن شدة الفرح رمزاً إلى الإعراض عن الجد[٢].

ثانياً : ملكة سبأ :

﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾﴾[٣].

---

(١) الظلال (٥/ ٢٧١١).
(٢) السابق،(١٣/ ٣١٦٦).
(٣) النمل: ٣٦.

" أي أنتم الذين تنقادون للهدايا والتحف وأما أنا فلا أقبل منكم إلا الإسلام أو السيف".

وعن ابن عباس رضي الله عنه: أمر سليمان الشياطين فموهوا له ألف قصر من ذهب وفضة فلما رأت رسلها ذلك قالوا ما يصنع هذا بهديتنا وفي هذا جواز تهيؤ الملوك وإظهارهم الزينة للرسل والقصاد.

قال ابن عاشور: " أبى سليمان قبول الهدية لأن الملكة أرسلتها بعد بلوغ كتابه ولعلها سكتت عن الجواب عما تضمنه كتابه من قوله "وأتوني مسلمين" فتبين له قصدها من الهدية أن تصرفه عن محاولة ما تضمنه الكتاب، فكانت الهدية رشوة لتصرفه عن بث سلطانه على مملكة سبأ".

والخطاب في: "أتمدونني" لوفد الهدية لقصد تبليغه إلى الملكة لأن خطاب الرسل إنما يقصد به من أرسلهم فيما يرجع إلى الغرض المرسل فيه.

ومعنى تفرحون: "يجوز أن يكون تسرون، ويجوز أن يكون تفتخرون، أي أنتم تعظم عندكم تلك الهدية لا أنا لأن الله أعطاني خيرا منها[(١)]".

المبحث الحادي عشر

دور العلماء العالمين العاملين

أولاً: تجاه الفرحين البطرين الأشرين:

لقد نظر الذين أتوا العلم إلى قارون وزينته وأمواله بمنظار العلم، وعرضوه على ما عندهم من العلم، وجدوه فقيراً بائساً تعيساً، وجدوه هالكاً خاسراً محروماً، وجدوه معذباً شقياً مطروداً. فوعظوه فيما هو فيه فقالوا على سبيل النصح والإرشاد: لا تفرح بما أنت فيه يعنون لا تبطر بما أنت فيه من المال ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾.

وقُرِرَت قواعد ربانية شاملة مطردة لاستخدام نعم الله والتصرف فيها:

(١) السابق، (١٣/ ٣٠٧٧).

١- ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ﴾ [القَصص: ٧٧].

قال القرطبي : " أي اطلب فيما آتاك الله من الغنى والثروة الدار الآخرة بأن تعمل فيه أفعال الخير من التصديق الواجب والمندوب إليه وتجعله زادك في الآخرة "(١).

وقال الرازي(٢) : " المراد أن يصرف المال إلى ما يؤديه إلى الجنة " (٣).

٢- ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾.

قال الآلوسي(٤) : " أي لا تنس حظك من الدنيا. وعن ابن عباس أن تعمل فيها لآخرتك. وعن قتادة هو أن تأخذ من الدنيا ما أحله الله تعالى لك " (٥).

قال الإمام القرطبي :

قال ابن عباس والجمهور: لا تضيع عمرك في ألا تعمل عملا صالحا في دنياك؛ إذ الآخرة إنما يعمل لها، فنصيب الإنسان عمره وعمله الصالح فيها. فالكلام على هذا التأويل شدة في **الموعظة.**

وقال الحسن وقتادة: معناه لا تضيع حظك من دنياك في تمتعك بالحلال

---

(١) تفسير القرطبي،(١٣/ ٣١٤).

(٢) هو الإمام العلامة أبو عبد الله محمد بن عمر بن حسين القرشي الطبرستاني الأصل، ثم الرازي المفسر المتكلم، إمام وقته في العلوم العقلية،ولد سنة أربع وأربعين وخمسمائة صنف في فنون كثيرة، ومن تصانيفه " التفسير الكبير " المعروف بـ " مفاتيح الغيب" و" المحصول " و" نهاية العقول " قيل إنه ندم في آخر حياته على دخوله علم الكلام. توفي بهراة يوم الفطر سنة ست وستمائة (طبقات المفسرين للداوودي ج٢/ ٢١٦)، شذرات الذهب، ج٥/ ٢١.

(٣) تفسير الرازي،(٢٥/ ١٥).

(٤) هو أبو الثناء، شهاب الدين، السيد محمود أفندي الآلوسي،ولد سنة ١٢١٧ هـ في جانب الكرخ من بغداد، جمع كثيراً من العلوم، فكان مفسراً ومحدثاً، وأصولياً فقهياً، اشتغل بالتدريس والتأليف، وانتهت إليه رئاسة المذهب الحنفي وولى المدرسة المرجانية التي كانت مشروطة لأعلم أهل البلد، انفصل من منصب الإفتاء وأكب على تفسير القرآن حتى أتمه - وهو روح المعاني - توفي رحمه الله سنة ١٢٧٠ هـ ودفن في مقبرة الشيخ معروف الكرخي في الكرخ،(انظر: التفسير والمفسرون، لمحمد حسين الذهبي، ج١/ ٣٥٢ وما بعدها - دار الكتب الحديثة - مصر - الطبعة الثانية - ١٣٩٦ هـ).

(٥) تفسير الآلوسي،(٢٠/ ١١٢).

وطلبك إياه، ونظرك لعاقبة دنياك فالكلام على هذا التأويل فيه بعض الرفق به وإصلاح الأمر الذي يشتهيه وهذا مما يجب استعماله مع الموعوظ خشية النفور من الشدة.

قلت: وهذان التأويلان قد جمعهما ابن عمر في قول: احرث لدنياك كأنك تعيش أبدا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا وعن الحسن: قدم الفضل، وأمسك ما يبلغ وقال مالك: هو الأكل والشرب بلا سرف وقيل: أراد بنصيبه الكفن فهذا وعظ متصل; كأنهم قالوا: لا تنس أنك تترك جميع مالك إلا نصيبك هذا الذي هو الكفن ونحو هذا قول الشاعر:

نصيبك مما تجمع الدهر كله ... رداءان تلوى فيهما وحنوط

وقال آخر:

وهي القناعة لا تبغي بها بدلا ... فيها النعيم وفيها راحة البدن
أنظر لمن ملك الدنيا بأجمعها ... هل راح منها بغير القطن والكفن

قال ابن العربي[(١)]: فيه أقوال كثيرة جماعها استعمال نعم الله في طاعة الله.

٣- ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧]. قال الزمخشري: " وأحسن إلى عباد الله كما أحسن الله إليك "[(٢)]

٤- ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٧٧]: لا تقصد الفساد في الأرض، ولا تستخدم نعم الله في الفساد في الأرض ولا تجعل نعمة المال التي أنعم الله بها عليك وسيلة للفساد في الأرض.

" إن نعم الله عند من لا يحسنون النظر إليها، ولا يجيدون استخدامها والتصرف فيها، وسيلة للفساد والإفساد.

---

(١) هو الإمام العلامة، أبو بكر، محمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن العربي الأندلسي الأشبيلي المالكي ختام علماء الأندلس، وآخر أئمتها وحفاظها، ولدج سنة ثمان وستين وأربعمائة، كان متقناً لمسائل الخلاف والأصول والكلام، له تصانيف كثيرة ومفيدة، منها تفسيره "أحكام القرآن" و" عارضة الأحوذي على كتاب الترمذي " و" الإنصاف في مسائل الخلاف "في عشرين مجلداً. توفي سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة بفاس.(سير أعلام النبلاء ج٢٠/ ١٩٧و ما بعدها، طبقات المفسرين للداوودي، ج٢/ ١٦٧ وما بعدها).

(٢) تفسير الزمخشري،(٣/ ٤٣١).

- كم من هؤلاء من يستخدم نعمة المال في الفساد والطغيان!
- وكم من هؤلاء من يستخدم نعمة الجاه والسلطان في الفساد والطغيان!
- وكم من هؤلاء من يستخدم نعمة القوة في الفساد والطغيان!
- وكم من هؤلاء من يستخدم نعمة الصحة والعافية في الفساد والطغيان!
- وكم من هؤلاء من يستخدم نعمة الشهوة في الفساد والطغيان!
- وكم من هؤلاء من يستخدم نعمة العقل والموهبة والذكاء في الفساد والطغيان!
- وكم وكم نرى من المتكبرين الظالمين الذي يستخدمون نعم الله المختلفة في الفساد والطغيان!"[1]

٥- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القَصَص: ٧٧] :

الفساد : الخراب.

قال قتادة والسدي: الفساد : الشرك، وهو أعظم الفساد.

قال ابن عباس قال: هو نقصان البركة بأعمال العباد كي يتوبوا.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [آل عِمرَان: ٦٣] : أي من عدل عن الحق إلى الباطل.

إنها تقرر حقيقة دائمة مطردة، لا تختلف في أي زمان ولا مكان : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

لا يحب المفسدين لأنهم يفسدون في الأرض، ويكونون دعاة للشر والظلم والرذيلة والله يحب المصلحين دعاة الخير والعدل والفضيلة.

لا يحب المفسدين لأنهم يؤذون الناس، والله يحب الذين ينفعون الناس.

ثانياً : تجاه المخدوعين بالبطرين الأشرين :

فقالوا لهم "**ويلكم ثواب الله خير** ". لقد دعوا هؤلاء المخدوعين إلى معرفة حقائق الأمور ووجهوهم إلى طلب ما يستحق أن يُطلب، حيث أرشدوهم

(١) مع قصص السابقين في القرآن، د.صلاح عبد الفتاح الخالدي، ص ٥٨٩.

إلى ابتغاء ثواب الله.

" ثواب الله خير :

- خير من مال قارون وكنوز وزينته.
- خير من مظاهر الدنيا وزخارفها، خير من كل ما ملكه منها.
- خير لأنه هو الباقي الدائم الخالد، خير لأنه هو الذي تأنس به النفوس، وتسعد به الروح وتلذ به الحياة.
- خير لأنه دليل محبة الله ورضاه وفضله.

ثواب الله خير. ويستحق أن تطلبه النفوس، وتتوجه إليه الأنظار، ويسير إليه الناس بهمة وعزيمة، يستحق أن تنفق فيه الأموال والأوقات والأعمار، وأن توظف له الطاقات والقدرات والإمكانات.

ثواب الله خير : لمن آمن وعمل صالحاً.

(لا يلقاها إلا الصابرون)

الصبر هو الشرط لإدراك ثواب الله. والصابر هو المؤهل لتلقيها من الله سبحانه وتعالى.

لكن ما هو الصبر ؟

إنه الصبر على الابتلاء والامتحان.

الصبر على الفتنة الطاغية والمحنة القاسية.

عندما يرى المؤمن أصحاب الأموال والكنوز، يستعلي عليهم بالصبر.

وعندما يرى المظاهر والشهوات يستعلي عليها بالصبر.

وعندما يرى المفتونين المخدوعين بزينة الدنيا وملذاتها لا يجد أمامه إلا الصبر، ولا ينجيه من السقوط مثلهم إلا الصبر.

الصبر هو زاد عظيم، ومدد لا ينقطع، وعطاء لا ينفد(١).

(١) مع قصص السابقين في القرآن، ص ٦٠٠.

من الفوائد في قصة قارون :

١- لابد من وجود مؤمنين صالحين صابرين، ينصحون الطغاة البغاة، كما فعل المؤمنون مع قارون.

٢- الحذر من الفرح الذي يقود إلى الكبر والبطر والأشر والخيلاء والظلم والفساد.

٣- الفرح في الإسلام فَرَحان :

- **فرح مباح بل مطلوب مرغوب. وهو سرور المؤمن بنعم الله عليه ورضاه بها وشكره لله عليها.**
- **وفرح محرم : وهو الذي يقود إلى الغرور والفخر والبغي والجحود.**

٤- الفرح الحقيقي لا يكون إلا بشيء باق دائم وهو فضل الله ورحمته ونعيمه وجنته، أما الفرح بشيء عرضي زائل مثل الدنيا وزينتها وزخارفها، فهذا دليل السذاجة والغفلة.

٥- **قواعد استخدام نعم الله :**

- ابتغاء الدار الآخرة فيها.
- توجيه قليل منها للتمتع المباح في الحياة الدنيا.
- الإحسان مع الله والإحسان مع الناس من خلال تلك النعم.
- حرمة استخدامها في البغي والفساد والإفساد.
- - المفسدون ينالون غضب الله ويفقدون محبته ولذلك فهم هالكون خاسرون.

٦- الصبر الجميل العظيم هو المدد الدائم والزاد الذي لا ينفد، في مواجهة ضغط الفتن وقوة الإغراءات وعنف البغي والبطر ولا يلقاها إلا الصابرون.

٧- يجب توجيه الأنظار إلى ثواب الله، وتعليق القلوب به، فهو خير لمن آمن وعمل صالحاً.

٨- المسلم لا يعادي المال، ولا يمتنع منه بل يأخذه وفق ضوابط شرعية، ويستمتع به وفق ضوابط شرعية، وينظر إليه وفق قواعد شرعية.

٩- يحرص الطغاة المفسدون على كسر قلوب الآخرين، وعلى غرس الشعور

بالمرارة والحرمان في نفوسهم. فيختالون عليهم وينتفشون ويتيهون ويخرجون عليهم بكامل زينتهم وينشرون عليهم مباذلهم ومفاسدهم ومجونهم.

١٠-كل نعمة يعطاها المؤمن يقابلها بطاعة جديدة وشكر جديد وليكن شعاره" .

أحدث لكل نعمة طاعة وشكر " ، وإذا قابلها بمعصية فهو مستدرج، وكان من سنة العارفين الخوف على أنفسهم من الاستدراج :

فهذا عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - لما حملت له كنوز كسرى قال : اللهم إني أعوذ بك أن أكون مستدرجاً فإني سمعتك تقول :﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1] .

وهذا الحسن البصري - رحمه الله- يقول : " كم من مستدرج بالإحسان إليه، وكم مفتون بالثناء عليه وكم مغرور بالستر عليه"[2].

(١) لسان العرب، لابن منظور، (٣/ ٩٢).
(٢) تفسير القرطبي، (١٨/ ٢٥١).

فهرس المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم

ثانياً: المصادر والمراجع العامة:

١ ـ إحياء علوم الدين، الإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي، تحقيق سيد إبراهيم، (دار الحديث القاهرة الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م).

٢ ـ الإصابة في تمييز الصحابة. ابن حجر العسقلاني، دار الكتب العلمية: بيروت - لبنان، الطبعة (بدون) التاريخ (بدون).

٣ ـ أصول علم النفس العام، للدكتور: عبد المجيد محمد الهاشمي.

٤ ـ الأعلام / قاموس تراجم، خير الدين الزركلي. دار العلم للملايين: بيروت - لبنان - الطبعة السادسة، ١٩٨٤م.

٥ ـ اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية، تحقيق د.ناصر عبد الكريم العقل، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ، مطابع العبيكان.

٦ ـ البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع.محمد بن علي الشوكاني. مكتبة ابن تيمية: القاهرة، الطبعة (بدون)، التاريخ (بدون).

٧ ـ تحفة الأحوذي بشرح الترمذي، محمد بن عبد الرحمن المباركفوري، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان، دار الفكر: المكان (بدون) الطبعة الثالثة، ١٣٩٩هـ.

٨ ـ تفسير التحوير والتنوير، الطاهر بن عاشور. الدار التونسية للنشر: تونس، الطبعة (بدون)١٩٨٤م.

٩ ـ تفسير السعدي "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان"، عبد الرحمن بن ناصر آل سعدي، دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر،

بيروت :لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

١٠ ـ تفسير القرآن الحكيم، الشهير بتفسير المنار، محمد رشيد رضا، دار المعرفة :بيروت الطبعة الثانية، التاريخ (بدون).

١١ ـ تفسير القرآن العظيم.أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، دار المعرفة :بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ.

١٢ ـ التفسير القيم للإمام ابن القيم، جمع محمد أويس الندوي، حققه محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان.

١٣ ـ التفسير الكبير، المسمى "مفاتيح الغيب " الفخر الرازي، دار الفكر، بيروت - لبنان، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

١٤ ـ هذيب سير أعلام النبلاء، للإمام الذهبي، إعداد : محمد حسن عقيل موسى الشريف، دار الأندلس الخضراء للنشر والتوزيع، جدة - السعودية الطبعة الخامسة، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

١٥ ـ تهذيب مدارج السالكين، ابن القيم، تحقيق عبد المنعم صالح العلي العزي، مكتبة المأمون - جدة، ١٤١٧ هـ/ ١٩٩٧م.

١٦ ـ جامع العلوم والحكم، ابن رجب، تحقيق شعيب الأرناؤوط وإبراهيم باجس، الطبعة السابعة، سنة ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان.

١٧ ـ الجامع لأحكام القرآن. أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي.دار الكتاب العربي : بيروت، الطبعة (بدون)، التاريخ (بدون).

١٨ ـ الرحيق المختوم، صفي الرحمن المباركفوري، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع : المنصورة -مصر الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

١٩ ـ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني.محمود الآلوسي، دار إحياء التراث العربي :بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٥هـ.

٢٠ ـ زاد المعاد في هدي خير العباد.ابن القيم الجوزية، تحقيق شعيب

الأرناؤوط، وعبد القادر، مؤسسة الرسالة، مكتبة المنار الإسلامية: الكويت الطبعة الثانية، ١٤٠١هـ.

٢١ ـ سنن أبي داود، أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني، تعليق: عزت عبيد الدعاس.دار الحديث للطباعة والنشر والتوزيع :بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٨٨هـ.

٢٢ ـ سنن الترمذي، أبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة، تحقيق: أحمد شاكر، دار إحياء التراث العربي : بيروت، الطبعة (بدون)، التاريخ (بدون).

٢٣ ـ سيرة النبي المشهورة بـ" سيرة ابن هشام" ، أبي محمد عبد الملك بن هشام، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد.دار الفكر، المكان : (بدون)، الطبعة (بدون) ١٤٠١هـ

٢٤ ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب.أبي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي، دار الفكر : المكان (بدون) الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ.

٢٥ ـ صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق : مصطف ديب البُغا، دار اليمامة :دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.

٢٦ ـ صحيح سنن ابن ماجه، محمد ناصر الألباني، مكتب التربية العربي لدول الخليج، إشراف المكتب الإسلامي : بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ.

٢٧ ـ صحيح مسلم بشرح النووي، محيي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، المكان (بدون)، التاريخ (بدون).

٢٨ ـ صحيح مسلم، أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي.دار إحياء التراث العربي :المكان (بدون)، الطبعة (بدون)، التاريخ (بدون)

٢٩ ـ عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، ابن القيم، تحقيق وتعليق محمد عثمان، دار الريان للتراث، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

٣٠ ـ عون المعبود في شرح سنن أبي داود، لأبي محمد شمس الحق

العظيم أبادي، دار الفكر، الطبعة الثالثة ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م

٣١ ـ فتح الباري بشرح صحيح البخاري. ابن حجر العسقلاني، تحقيق: محب الدين الخطيب، المكتبة السلفية: القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ

٣٢ ـ فرق معاصرة تنتسب للإسلام، د.غالب بن علي عواجي، مكتبة لينة للطبع والنشر، طبعة أولى، سنة ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

٣٣ ـ فهم الإسلام في ظلال الأصول العشرين، جمعه أمين عبد العزيز، دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع، الاسكندرية - القاهرة، الطبعة الرابعة، عام ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م

٣٤ ـ الفوائد، ابن القيم، تحقيق محمد عثمان الخشت، دار الكتاب العربي بيروت لبنان، الطبعة الرابعة، عام١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

٣٥ ـ في ظلال القرآن، سيد قطب، دار العلم للطباعة والنشر: جدة - السعودية، الطبعة الثانية عشرة، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م

٣٦ ـ القرآن الكريم.

٣٧ ـ الكامل في التاريخ، لابن الأثير أبي الحسن علي بن محمد بن محمد، دار الكتاب العربي: بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٣هـ

٣٨ ـ لسان العرب، أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور. دار صادر: بيروت، الطبعة (بدون)، التاريخ (بدون).

٣٩ ـ لطائف المعارف، الحافظ ابن رجب الحنبلي، تحقيق عبد الله بن عامر.

٤٠ ـ مجموعة رسائل الشيخ حسن البنا، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، عام ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

٤١ ـ مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة لبنان - بيروت، الطبعة (بدون)، ١٩٨٦م.

٤٢ ـ مع قصص السابقين في القرآن، د.صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار

القلم : دمشق، الطبعة الرابعة، ١٤٢٥ هـ/ ٢٠٠٤م.

٤٣ ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن. محمد فؤاد عبد الباقي.دار الحديث : القاهرة، الطبعة(بدون) ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م

٤٤ ـ مفردات ألفاظ القرآن، العلامة الراغب الأصفهاني، تحقيق صفوان داوودي، دار القلم : دمشق، الطبعة الثالثة، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

٤٥ ـ مقدمة في أسباب اختلاف المسلمين وتفرقهم، طارق عبد الحكيم.

٤٦ ـ الموطأ، للإمام مالك بن أنس، تصحيح وتعليق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي.

فهرس المحتويات

مقدمة ٣

خطة البحث ٧

تمهيد ١١

الفصل الأول: فرح الله - عز وجل - بتوبة العبد ١٤

المبحث الأول: مذهب السلف في آيات الصفات وأحاديثها ١٥

المبحث الثاني: مذهب الخلف في آيات الصفات وأحاديثها ١٧

المبحث الثالث: من أقوال العلماء في حديث فرح الله بتوبة العبد ١٩

المبحث الرابع: طبقات التائبين ٢٣

الفصل الثاني: فرح رسول الله ﷺ ٢٩

المبحث الأول: فرح رسول الله بإسلام عكرمة وعدي بن حاتم ٢٩

المبحث الثاني: فرح الأنبياء والصالحين ٣٣

المبحث الثالث: فرح رسول الله بأمن المدينة من شر الدجال اللعين ٣٥

المبحث الرابع: فرح الرسول - ﷺ بمبادرة المسلمين لدفع حاجة المحتاجين من المسلمين ٣٧

الفصل الثالث: فرح المؤمنين ٤٢

المبحث الأول: فرح المؤمنين بفضل الله ٤٢

المبحث الثاني: فرح المؤمنين بالعلم النافع ٤٦

المبحث الثالث: فرح المؤمنين بنصر الله ٥١

المبحث الرابع: فرح الشهداء وأرواح المؤمنين ٥٧

المبحث الخامس: فرحتا الصائم ٦١

المبحث السادس: صور ونماذج من فرح المؤمنين ٦٣

المبحث السابع: الفرح بموت الظالمين والطغاة ٧٤

الفصل الرابع: فرح المنافقين ٧٩

المبحث الأول: تربص المنافقين بالمؤمنين وفرحهم بما يحل بالمسلمين من مصائب ٨٠
المبحث الثاني: فرح المنافقين - المرائين المتكثرون- بما لم يعطوا ٨٢
المبحث الثالث: فرح المنافقين بالتخلف عن الجهاد ٨٣
المبحث الرابع: حركة النفاق وأثرها على الإسلام والمسلمين ٨٧
المطلب الأول: زعيم حركة النفاق في عصر النبوة ٨٨
المطلب الثاني: ظهور حركة النفاق ٩٤
المطلب الثالث: مؤامرات المنافقين للطعن في الإسلام ٩٧
المطلب الرابع: المنافقون وتأسيس الفتنة الكبرى وتنشئة الفرق ١٠٥
المطلب الخامس: دور المنافقين في استقدام الصليبيين ١١٢
المطلب السادس: المنافقون وسقوط الخلافة ١١٣
المطلب السابع: الموقف الشرعي تجاه المنافقين ١١٧
الفصل الخامس: فرح الكافرين ١١٩
المبحث الأول: فرح جحود النعم ١١٩
المبحث الثاني: فرح الكافرين بالفخر على الغير ١٢١
المبحث الثالث: فرح التحزب بالضلال ١٢٥
المبحث الرابع: فرح ترك وتبديل الدين ١٢٨
أسباب نشأة الفرق ١٢٩
المبحث الخامس: فرح البَطَر والأشر ١٣٢
المبحث السادس: فرح الكافرين بالعلم الفاسد الذي يقود إلى الجهالة ١٣٣
آفة العلماء إذا آثروا الدنيا واتبعوا الرياسات والشهوات ١٣٤
المبحث السابع: فرح الاختيال والفخر ١٣٧
المبحث الثامن: فرح الكفار بما أوتوا في الدنيا (قانون الاستدراج) ١٣٩
المبحث التاسع: سنة الله في تدمير الباطل ١٤٤
المبحث العاشر: نماذج للفرحين البَطَرين الأشرين ١٤٩
المبحث الحادي عشر: دور العلماء العالمين العاملين ١٥١
من الفوائد في قصة قارون: ١٥٦
فهرس المصادر والمراجع ١٥٩

AL-FARIḤŪN

FĪ ḌAWᵓ AL-QURᵓĀN AL-KARĪM WAL-SUNNAH AL-NABAWIYAH

(The exultants
in light of The Holy Qur'an
and The Prophetic Sunna)

by

Tawfīq ᶜAli zabādi

DAR AL-KOTOB AL-ILMIYAH
Beirut-Lebanon